مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

(الغلاييني وأخلاق التمدن)

د. محمد كمال الجيزاوي
مدرس الأخلاق بجامعة بني سويف

مجلة كلية الآداب بقنا - العدد (٤٣) - سنة ٢٠١٤م

أولاً: الغلاييني؛ نشأته وثقافة عصره:

١- نشأته:

تمر الأمم بدورات تاريخية بين تقدم وازدهار، وتخلف وانهيار، وفي كلتا الحالتين يلعب المثقفون الوطنيون، ممن هم بأوطانهم مغرمون، دورًا كبيرًا في قيادة الأمة، سواء للتقدم والازدهار، أو للخلاص من التخلف والانهيار، والخلاص من الغمة، ومن هؤلاء الشيخ مصطفى بن محمد بن سليم بن محيي الدين بن مصطفي الغلاييني المولود في بيروت ١٨٨٦ والمتوفى فيها في ١٧ فبراير ١٩٤٥، وعاصر نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، في مرحلة مهمة من مراحل التاريخ العربي والإسلامي، محاولاً النصح والإرشاد، للتخلص من التخلف والانهيار، من أجل التقدم والازدهار، على أسس تقوم على اللغة والدين والأخلاق. وعلى الرغم من معاصرة الغلاييني لكثير من المثقفين سواء من سابقيه أو من أبناء عصره الذين نالوا شهرة كبيرة أمثال محمد عبده ت١٣٢٣ه/١٩٠٥م والكواكبي ورشيد رضا وشكيب أرسلان ، وعلى الرغم من أفكاره الرائدة، ومحاولاته الجادة لبيان أسس النهضة، وبلاغته الواضحة، ووضوح أفكاره ودقتها، إلا أنه لم ينل جزءًا مما يستحقه من الشهرة، ومن الاهتمام الأكاديمي لنشر أفكاره. فلا نكاد نجد دراسات أو أبحاثًا أو مقالات حول الغلاييني إلا بحثًا لسهيلة الريماوي بعنوان "الشيخ مصطفى الغلاييني حياته وفكره"، ورسالة ماجستير في الأردن للباحث باسم الدهامشة بعنوان: "مصطفي الغلاييني حياته وفكره" قامت الريماوي بالإشراف عليها، وركزت على حياة الغلاييني وفكره السياسي، ودوره في الإصلاح الديني وفكره الاجتماعي والاخلاقي ودوره في الأدب العربي وتحديث اللغة العربية، واقتصرت في معالجة فكره الاجتماعي والاخلاقي على التربية والمرأة. وبذلك لم تتناول كافة المجالات التربوية والاخلاقية التي تناولها الغلاييني. ومعالجة احمد سالم للمساجلة الفكرية بين نظيرة زين الدين والشيخ الغلاييني حول الحجاب والمرأة(١) فضلاً عن شذرات هنا وهناك.

ولد مصطفى الغلاييني في أسرة تنتمي لقبيلة الحويطات، لوالد محب للعلم والمعرفة، ترك ثروة كبيرة لأولاده، أنفق معظمها على طلب العلم والتبرع للفقراء. وقد بدأ تلقي العلم في المساجد الكبرى في بيروت على يد الشيخ محيي الدين الخياط، ومن أساتذته في المسجد الشيخ عبد الباسط الفخوري- مفتي بيروت- الذي تعلم على يديه الفقه الإسلامي وعلم الكلام، والشيخ صالح الرافعي الطرابلسي الذي تعلم عليه مادة الأدب العربي والشعر وفن الخطابة، ثم انتقل إلى مصر في ١٩٠٣ حيث التحق بالأزهر الشريف فتتلمذ على يد الشيخ محمد عبده، وسيد بن على المرصفي- المرجع في علم اللغة- والشيخ محمد أبي راشد. وبدأ الغلاييني في تلقي العلم ونشر مقالاته في صحف القاهرة، معربًا عن رأيه الصريح حول ضرورة إصلاح البرامج في الأزهر، لكنه لم يبق في مصر

---

(١) د أحمد محمد سالم: المرأة في الفكر العربي الحديث، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢، ص ٦٩: ٧٢، ١١٥: ١٢٢

سوى ستة أشهر عاد بعدها إلى بيروت حيث قام بالتدريس في أكبر مساجدها، ثم ما لبث أن التحق بالتدريس في المكاتب السلطانية والكلية الإسلامية عام ١٩٢٠. والتحق الغلاييني بالجيش التركي في الحرب العالمية الأولى، وبعدها في جيش الأمير فيصل بن الحسين، كما انتسب إلى جمعية "العربية الفتاة السرية" وحمل رقم ٢١٢ ت، لا. تم القبض عليه عدة مرات وسجنته قوات الاحتلال الفرنسي وتم نفيه إلى فلسطين حتى عاد إلى بيروت عام ١٩٢٥. أصبح عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٢٧، واستمر فيه حتى تولى القضاء الشرعي في بيروت في يونيو ١٩٣٢. تولى منصب القضاء الشرعي في بيروت وأصبح عضوًا في مؤتمر القدس الإسلامي العام، ورئيسًا للمجلس الإسلامي الأعلى في بيروت. وبعد بضع سنين تبوأ منصب مستشار في المحكمة الشرعية العليا، حتى أصيب بمرض جلدي خطير وتوفي على إثره في ١٧ فبراير ١٩٤٥ ودفن في بيروت(١). وصف بأنه "علامة بيروت وأديبها وشاعرها وخطيبها في عهد الدستور العثماني، وخطيب الجيش الرابع في الحرب العالمية الأولى، وهي مرتبة لم يبلغها غيره وأحد أعلام العرب البارزين"(٢)

٢- الغلاييني وثقافة عصره:

عاصر الغلاييني فترة التقلبات الحادة في الوطن العربي والإسلامي، حيث تفاعلت ثلاث حركات تاريخية ضخمة هي: محاولة إصلاح الدولة العثمانية وانهيارها، حركة الرأسمالية الأوربية الصاعدة، حركة اليقظة العربية الناشئة، وانتشار المطابع والصحف. ونتج عن ذلك نشر الوعي والحلقات العلمية، كما عاصر عزل رئيس الوزراء الرجل القوي في الخلافة مدحت باشا للسلطان عبد العزيز وتولية السلطان مراد الخامس الذي عزل أيضًا بسب مرضه العقلي، وقام مدحت باشا بوضع السلطان عبد الحميد سدة الحكم لقبوله بالنظام الدستوري فأعلن الدستور في أغسطس ١٨٧٦، غير أن السلطان عبد الحميد سرعان ما أطاح بمدحت باشا وعزله وأجل البرلمان وعطل الدستور. وعند ظهور حركة الاتحاد والترقي على يد مصطفي كمال الضابط بالجيش الثالث العثماني بعد جمعه العناصر الساخطة على السلطان العثماني في جمعية الوطن وتوحيدها مع الجمعية السرية في سالونيك، والتي وجد فيها الشيخ الغلاييني ما يحقق طموحه فانتسب لها، وأصبح من دعاة الوحدة العثمانية، بيد أنه بعد فترة بسيطة تبين للغلاييني وغيره عنصرية هذه الجمعية ومقاصدها في "التتريك"، فأيدوا حزب الحرية والائتلاف وانتسبوا له بعد أن كانوا من أشد معارضيه. وبدأ الغلاييني الاهتمام بالقومية العربية كبديل للدولة العثمانية "غير أن ولاءه للعثمانيين لم ينقطع حتى هذا الوقت،

(١) أنظر سهيلة الريماوي، باسم الدهامشة: الشيخ مصطفى الغلاييني حياته وفكره، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الأردن، مج ٢٦، ١٩٩٩، ص ٨٢٨-٨٣١

(٢) أدهم آل جندي: أعلام الأدب والفن: ج٢، مطبعة الاتحاد، سوريا، ١٩٥٨، ص ٣٩٢

حيث استجاب إلى داعي الجهاد وتطوع تحت الراية العثمانية في الحرب العالمية الأولى وعينه أحمد جمال باشا قائد الجيش الهمايوني الرابع واعظًا وخطيبًا في هذا الجيش، فحضر المعركة والهزيمة"[١]

أدت الظروف التاريخية التي عاش فيها الغلاييني، ومحاولة إصلاح الدولة العثمانية وانهيارها، ثم العنصرية التي سادت دعوة مصطفى كمال ومحاولته القضاء على اللغة العربية وتتريك العرب، واحتلال الغرب للدول الإسلامية من جانب آخر إلى التأثير على فكر الغلاييني الذي تقوم أفكاره على التمسك بالإسلام كمصدر رئيس للحياة الدنيا، صاحب انتماء قوي للقومية العربية والتمسك بها، شديد الاهتمام بالقيم والمبادئ والعلم. ويمكن القول بأن أهم الأركان الأساسية التي قام عليها فكر الغلاييني هي:

أ- إيمانه بقدرة الدين على توحيد الأمة: لأنها توحد أصحاب الدين الواحد، لهذا انتسب لجمعية الاتحاد والترقي، اعتقادًا منه أن الهدف منها إعادة بناء الدولة الإسلامية على أسس من العدل والمساواة، قبل أن يخرج عليها بسبب العنصرية القومية التي تحولت إليها. كما نادى الغلاييني بتجديد الدين الإسلامي من خلال مجموعة من المبادئ تقوم على:

١- نبذ البدع والخرافات التي لحقت بالدين وهي ليست منه.

٢- العودة للإسلام الأصلي القائم على القران والسنة والسيرة النبوية.

٣ – الاهتمام بإعادة بناء المجتمع العربي الإسلامي من خلال الاهتمام بالتربية القويمة.

٤- التركيز على إبراز ضرورة الحاكم الصالح.

وجمع الغلاييني بذلك بين أفكار الحركة الوهابية وبين مشروع الأفغاني ومحمد عبده. ودافع عن الدين الإسلامي ضد منتقديه كما يتضح في كتابه "الإسلام روح المدنية" في الرد على اللورد كرومر، وأبرز دور الدين الإسلامي في التقدم واهتمامه بالعقل، كما آمن بضرورة فتح باب الاجتهاد. واتفق الكواكبي مع الغلاييني في أن الدين من أهم وسائل الإصلاح السياسي حيث يذهب إلى أن " كل المدققين السياسيين يرون أن السياسة والدين يمشيان متكاتفين، ويقدرون أن إصلاح الدين أسهل وأقوى وأقرب طريقًا للإصلاح السياسي"[٢] وذهب البعض إلى أن العامل الديني هو العامل الأساسي الذي قامت عليه الحضارة العربية، وانتقل بها العرب من مرحلة البداوة إلى مرحلة الحضارة، ومن هنا كانت أهمية وضرورة الرجوع للدين الإسلامي كأساس للتقدم فأسباب ارتقاء المسلمين في الماضي "كانت عائدة في مجملها إلى الديانة الإسلامية التي كانت قد ظهرت جديدًا في الجزيرة العربية فدان بها قبائل العرب، وتحولوا بهدايتها من الفرقة إلى الوحدة، ومن الجاهلية إلى المدنية...

(١) باسم الدهامشة: مصطفي الغلاييني حياته وفكره، رسالة ماجستير، جامعة الأردن، كلية الدراسات العليا، ٢٠٠٥، ص ٢١

(٢) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تحقيق وتقديم د محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩، ص ٣٢

وفتحوا نصف كرة الأرض في نصف قرن، ولولا الخلاف الذي عاد فدب بينهم منذ أواخر خلافة عثمان وفي خلافة علي رضي الله عنهما لكانوا أكملوا فتح العالم ولم يقف في وجههم واقف"(١)

ب- الاهتمام بتعليم اللغة العربية والاعتزاز بالعروبة: اللغة هي الوعاء الذي يُصَب فيه الفكر وتظهر من خلالها مقومات الهوية " وبلغ من أهمية اللغة بالنسبة إلى الهوية أن أكد بعض الباحثين أن اللغة هي التي تولد الهوية.....وثمة اتفاق واضح بين أغلبية المهتمين بدراسة الهوية على أن اللغة العربية تشكل العنصر الرئيس والأهم في تحديد الهوية العربية"(٢) ومن هنا كان اهتمام الغلاييني بضرورة تعليم اللغة العربية وتشبع النشء بها بعد أن وصلت إلى دور الانحطاط حيث تأخرت لأسباب كثيرة منها انقسام الأمة على نفسها وهجر العلم وضعف العلماء "فأخذوا من اللغة قشورها وهجروا لبابها، فاكتفوا من النحو والصرف بالمناقشات والاعتراضات التي لا تجدي نفعًا، ومن البلاغة بالزخارف المموهة... ثم أطالوا في توسيع المؤلفات على تلك الطريقة العقيمة، فطالت سبل التحصيل على الطالبين، وصعب تناول هذه اللغة إلا بعد صرف وقت طويل... ولهذه اللغة من الأهمية في الدين والسياسة والعلم والاقتصاد شوطًا بعيدًا"(٣) ويبين الغلاييني أسباب تدهور اللغة العربية وكيفية الارتقاء بها وأهميتها للمجتمع في كل المجالات وذلك عن طريق إعادة إحيائها من خلال مؤلفاته مثل جامع الدروس العربية، الدروس العربية، نظرات في اللغة والأدب، سلم الدروس العربية، وغيرها من المؤلفات المتخصصة في اللغة العربية. وهذا الهاجس بإحياء اللغة العربية نجده لدى جل مفكري هذه الفترة نتيجة محاولات التتريك من جهة، ونتيجة الاحتلال الأوروبي لبلدان الوطن العربي ومحاولات نشر اللغات الأوربية، وعلى رأسهم محمد عبده وتلاميذه، فعلى سبيل المثال يرى ساطع الحصري أن اللغة العربية من أهم أسس القومية "مبينًا خطورة إحلال المستعمرين لغاتهم محل لغات البلاد المفتوحة كما حدث في الجزائر حين أحل الفرنسيين اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في المعاملات والتعليم والثقافة"(٤) كما ينبه الشيخ الأطفيش* في المغرب العربي خاصة الجزائر إلى ضرورة مقاومة محاولات الاحتلال الفرنسي لإحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية

(١) شكيب أرسلان: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط٢، ١٩٣٠، ص ٤١

(٢) أحمد حسين حسنين: لغة التعليم وتأثيرها في الهوية العربية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط١، ٢٠١٣، ص ٢٩٨: ٢٩٩.

(٣) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر كتاب أخلاقي اجتماعي أدبي، المكتبة الأهلية، بيروت، ١٩١١، ص ٢٣٢: ٢٣٣

(٤) د محمد عبد الرحمن برج: ساطع الحصري، دار الكاتب العربي، القاهرة، سلسلة أعلام العرب، سبتمبر ١٩٦٩، ص ١٤٤

* العلامة الشيخ محمد بن يوسف بن عيسى الأطفيش ١٨٢٠- ١٩١٤ بالجزائر اهتم بغرس الأخلاق الإسلامية ونشرها، حارب الاستعمار الفرنسي للجزائر ودعا للجهاد ضده وعدم التعامل معه، له ما يصل إلى ثلاثمائة مؤلف ما بين صغير ومتوسط وكبير ومن أهم ما كتب فيه الأخلاق، الفقه، الفلسفة ، مصطلح الحديث، الوعظ

لهذا اهتم "بالعلم والتعليم، ويعد من الأوائل الذين عارضوا وجود الاستعمار في الجزائر، فكان مجاهدًا في سبيل الدين والوطن، بعلمه ووعيه، واهتمامه بتعليم اللغة العربية، التي هي أحدى أهم مقومات الشخصية الوطنية"(١). كما انتقد الأفغاني الخطأ الكبير الذي وقع فيه الترك بمحاولاتهم "تتريك" العرب بدلاً من أن يتعلموا اللغة العربية، وهو ما كان سيزيد قوتهم ويقلص الخروج على سلطتهم، ولو فعلوا ذلك " لانتفى من بين الأمتين النعرة القومية وزال داعي النفور والانقسام بالتركي وبالعربي وصاروا أمة عربية بكل ما في اللسان من معنى، وفي الدين الإسلامي من عدل"(٢)، وقد أدى مسلك الأتراك ومحاولات التتريك إلى رفض العرب الخضوع لهم، فاستمروا في ثورات دائمة ضدهم، حتى انتهى حكمهم للعالم العربي.

كما يبرز الفكر القومي العروبي لدي الغلاييني في تحذيره من تزايد التواجد اليهودي في فلسطين، وتحوله من داعية للوحدة العثمانية الإسلامية، إلى مصلح قومي عربي بانتسابه لجمعية العربية الفتاة السرية*، وهي الدعوة التي شاركه فيها شكيب أرسلان حيث دعا العرب للتمسك بقوميتهم العربية ومقوماتها وعاداتها وتقاليدها وقيمها "ويحذرهم من تقليد الإفرنج تقليدًا أعمى، أو متابعتهم في كل شئ بلا بصر أو بصيرة، ولا يرى ضيرًا في أخذ النافع عنهم، مع الإبقاء على شخصية الأمة وذاتها ومميزاتها وخصائصها الأساسية التي لا تكون أمة بدونها"(٣).

ج-الاهتمام بالإصلاح الاجتماعي والتربية: اهتم الغلاييني بالإصلاح الاجتماعي والتركيز على ضرورة التربية الأخلاقية للناشئة، بشكل كبير إيمانًا منه بأن الطريق الوحيد لنهضة الأمة هو بناء مستقبلها عن طريق الاهتمام بتربية شبابها وتأهيلهم لقيادة الأمة(٤).

٣- مؤلفاته:

تنوعت مؤلفات مفكرنا فمنها ما يهتم باللغة العربية مثل "جامع الدروس العربية"، الدروس العربية، "نظرات في اللغة والأدب"، "سلم الدروس العربية"، "الثريا المغنية في الدروس العربية"، "رجال المعلقات العشر"، "القواعد العربية"، "ديوان الغلاييني"، "أسهل منال لتعليم الأطفال"، ومنها ما

---

(١) سعاد بسناسي: ملامح الطريقة التعليمية السمعية البصرية في كتاب الرسم في تعليم الخط للشيخ أطفيش، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد ١١٢، ٢٠١١، ص ١٦٢

(٢) عبد الرحمن الرافعي: جمال الدين الأفغاني باعث نهضة الشرق، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٥٧

* جمعية سرية سياسية أنشأها مجموعة من الطلاب العرب في باريس عام ١٩١١ بهدف نشر الفكر القومي العروبي في مواجهة حركة التتريك التي قادها مصطفى كمال فى تركيا

(٣) أحمد الشرباصي: شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سلسلة أعلام العرب، العدد ٢١، ١٩٦٣، ص ٨١

(٤) أدهم آل جندي: أعلام الأدب والفن: مرجع سابق، ص ٨٣٤، ٨٣٥، ٨٤٢

يدور حول الدين الإسلامي والدفاع عنه في مواجهة المستشرقين والمستغربين مثل: "لباب الخيار في سيرة المختار" ، "نخبة من الكلام النبوي"، "الخلافة الهاشمية"، "الإسلام روح المدنية" أو "الإسلام واللورد كرومر"، "الدين والعلم وهل ينافي الدين العلم"،" كلمتان للغلاييني"، "نظرات في كتاب السفور والحجاب"، كما قام بكتابة مؤلفات مرجعية هامة في الأخلاق والتربية مثل: "أريج الزهر"، "عظة الناشئين".

ثانيًا: الأخلاق وغايتها عند الغلاييني:

الهدف الأساسي في مؤلفات الغلاييني المتعلقة بالخلاق والتربية هو بيان كيفية تحقيق السعادة، التي يرى أنها الهدف الأسمى للإنسان، فمنذ وجوده على الأرض وهو يبحث عن السعادة، وإذا استقرأنا تاريخ الفكر الإنساني فسوف نجد اهتمامًا بالغًا بالسعادة وتحقيقها ويظهر ذلك جليًا في الفكر اليوناني فالسعادة في نظر سقراط هي ""الخير الأقصى أو الغاية القصوى التي ينبغي أن يتجه إليها الإنسان في كل حياته، وعلى الحكيم أن يسعى إلى بلوغها بالعقل والتخطيط السليم"(١)، وهو ما نجده عند أفلاطون ت ٣٤٧ ق.م الذي "يتحدث كثيرًا عن النشاط الخلقي كله على أنه يستهدف وينتهي في السعادة"(٢) والسعادة عنده " هي مجرد اسم آخر للخير الأقصى"(٣)، الذي يتوصل إليه البشر بتطهير نفوسهم "وبالتخلص من تأثير أجسادهم الفانية والارتقاء في التأملات للارتباط بالوجود الحقيقي وإدراك ماهية الخير(٤) حيث تولد السعادة " من السيادة على الذات وعلى الظروف وتفسح المجال للحكمة، والعدالة تولد السعادة(٥). أما عند أرسطو ت ٣٢٢ فإن السعادة هي "الغاية الأخيرة التي هي محل اتفاق بين الناس، فكل ما يبحث الناس عنه وكل باعث لهم على العمل وما يتطلبونه لذاته لا لشيء آخر وراءه، هو السعادة"(٦). والخير الذي يسعى إليه البشر هو "الخير الأقصى الذي تتجه إليه في النهاية كل أعمالنا ونشاطنا وهناك إجماع بين الخاصة والعامة على أن هذا الخير هو

---

(١) د أميرة حلمي مطر: الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٥٠

(٢) وولتر ستيس: تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة مجاهد عبد المنعم ، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٤، ص ١٨٨.

(٣) السابق: ص ١٨٩

(٤) د مصطفى النشار: تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ج٢، ١٩٩٩، ص ٢٥٤

(٥) غاستون مير: أفلاطون، تعريب د بشارة صارجي، سلسلة اعلام الفكر العالمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٠، ص ٧٢

(٦) أحمد أمين، زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٥، ص ٢٥٠ ٢٥٠

السعادة[١]. كذلك انشغل فلاسفة ومفكرو العرب بمفهوم السعادة فهي عند الفارابي ت ٩٢٣ "الأعظم خيرًا من بين الخيرات، وهي أكثر الخيرات وأعظمها وأكملها، وهي تطلب لذاتها وليس من أجل غيرها"[٢] وتتحقق السعادة بنيل الفضائل النظرية والخلقية والفكرية وبالتعليم والتأديب وهو ما وضحه الفارابي في كتابه تحصيل السعادة[٣]، أما ابن مسكويه ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م فقد جعل السعادة هي "تمام الخيرات وغاياتها والتمام هو الذي إذا بلغنا إليه لم نحتج معه إلى شئ آخر"[٤] بل أن ابن مسكويه قد جعل السعادة هي حجر الزاوية في فلسفته وكان كتابه الرئيس تهذيب الأخلاق محاولة للوصول إلى السعادة، وعند الغزالي ت ٥٠١هـ/ ١١١١م السعادة هي "مطلوب الأولين والآخرين لا تنال إلا بالعلم والعمل، والسعادة الحقيقية هي الأخروية وما عداها سميت سعادة إما مجازًا أو غلطًا كالسعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة. وإما صدقًا ولكن الاسم على الأخروية أصدق[٥]. وجاء الغلاييني ليكون وريثًا لكل هذا المخزون الثقافي الهدف الأساسي في مؤلفاته المتعلقة بالأخلاق والتربية هو بيان كيفية تحقيق السعادة، لهذا يبحث في السعادة باعتبارها الأساس لحياة الإنسان في الدنيا والآخرة، وباعتبارها الهدف الذي يسعى إليه كل إنسان ذو عقل، فالسعادة لديه -كما هي لدى أرسطو- هي ""الخير الأقصى، فالناس يطلبون الخيرات الأخرى مثل اللذة والقوة والثروة والحكمة من أجل السعادة"[٦]، كما يبحث في أسباب تحقيق السعادة وكيفية الوصول إليها، ويحسم الغلاييني كيفية تحقيق السعادة في الآخرة، فخدمة الناس والوطن طريق الجنة" فقيمة المرء ما يحسن، فإياك أن ترجو المنزلة السامية في الدنيا، والمقام المحمود في الآخرة، إذا لم تخدم قومك، وتسع في إنجاح وطنك، فانك إن سعيت وخدمت، تنبه بعد الخمول، وتحمد بعد الذم. والله يجزي المحسنين"[٧]. ويبرز الجانب الديني لدى الغلاييني في تحديده للهدف من وجود الإنسان على الأرض مستعينًا بمفهوم الخلافة في الأرض فقد خلق الإنسان "لعمارة الأرض وحسن السير في مناكبها. خلق ليكون خليفة الله فيها"[٨] مصداقًا لقوله تعالى {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً }[٩]. وهكذا يكون

---

(١) د اميرة حلمي مطر: مرجع سابق، ص ٣١٧

(٢) الفارابي: رسالة التنبيه على سبيل السعادة، دراسة وتحقيق سحبان خليفات، جامعة الأردن، ط١، ١٩٨٧، ص ٦٠

(٣) الفارابي: تحصيل السعادة، شرح د علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، ط١، ١٩٩٥، ص ٧٠

(٤) ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق في التربية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٥، ص ٦٦

(٥) الغزالي: ميزان العمل، مكتبة وطبعة محمد على صبيح، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٣، ٦٩

(٦) د محمد مهران رشوان: تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، طار قباء، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٧٥

(٧) مصطفى االغلاييني: أريج الزهر ، مرجع سابق، ص ٢٣

(٨) السابق ص ٢٣، ٢٤

(٩) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٣٠

مفهوم الاستخلاف في الأرض هو المسيطر على فكر الغلاييني فيما يتعلق بكيفية النجاة في الآخرة ودخول الجنة وبلوغ السعادة، مبينًا أسباب الوصول لهذه السعادة والتي على كل إنسان أن يتبعها عائدًا إلى الأصل الذي خلق منه، فالإنسان في الحقيقة هو "ابن السماء لا ابن الأرض، وأصله من العلاء لا من الحضيض. وما وجوده على سطح هذه الكرة إلا وجود ضيف عن قريب يرحل"(١) . لذا فلا داعي لكي يغتر بمال أو سلطة، فبعوضة أو برغوث أو زكام كفيلة بأن تضعفه وتشعره بعدم جدوى كل ما يعتقد أنها أسباب للمجد في الدنيا. لذا على الإنسان أن يتذكر يوم الحساب حيث لا يكون هناك فرصة لإعادة الزمان، لإصلاح الأخطاء التي وقع فيها الإنسان، حيث ينتصر الله فيه" للمظلوم من الظالم، وللضعيف من الغاشم. ذاك يوم تدور فيه رحى الشقاء، على أهل الجور، ويهيم فيه البخلاء، في كل نجد وغور، فلا يجدون مكانًا يعصمهم من البلاء"(٢). وهذه الدعوة ليست قاصرة على على طائفة أو جماعة أو ديانة بل هي دعوة عالمية من الغلاييني، لذا يدعو كل إنسان إلى أن "ينظر إلى أخيه في الإنسانية، ويعينه بما يستطيع، ويخفف ويلاته، ويقلل من نكباته"(٣). أما السعادة في الحياة الدنيوية فلها أسباب متعددة "متى عمل الإنسان بها وصل إلى ما يتطلبهُ من سعادة الحياة"(٤). وقد خلق الله الإنسان ووعده بالسعادة وحدد له سبلها وتوعده بالشر إن ابتعد عن الطريق الذي رسمه له وهو طريق الهداية، وهي أسباب يمكن لكل إنسان ذي عقل سليم معرفتها، وما يبعده عنها إلا "اتباع الهوى، والميل إلى الشهوات، والسعي وراء المنفعة الخاصة، بما يصرف المرء عن النظر في شؤون الحياة الحقيقية، ويصدف به عن الميل إلى ما فيه سعادة حياته"(٥). فإذا تساءلنا عن طريق السعادة في الحياة الدنيا وجدنا الغلاييني يحدده بأنه التوسط "فصاحب الثروة والغنى أمره الله أن لا يكون بخيلاً شحيحًا بحيث لا ينتفع بجزء من ماله أولو الفاقة والفقر، كما أمره أن لا يكون مبذرًا يُذهب الأموال ويجود بها لأمرٍ غير مشروع، أو عملٍ غير مبرور. بل أوجب عليه أن يكون وسطًا بين التبذير والشح"(٦). فصاحب الثروة عليه أن يكون وسطيًا فلا يبذر في أمواله ولا يكون بخيلاً مصداقًا لقوله تعالى {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا

---

(١) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٢١

(٢) السابق ص ٢٥

(٣) السابق ص ٢٦

(٤) السابق ص ٩٧

(٥) السابق ص ٩٤

(٦) السابق ص ٩٥، ونكاد نجد الفكرة بتفاصيلها لدى أرسطو في نظرية الوسط الذهبي التي هي الفضيلة الوسط بين رذيلتين

مَّحْسُورًا}[١]. فالوسطية تبقي الإنسان في سعادة دائمة وعيش رغد، ولا تتوقف الوسطية على الثروة فقط، بل تنطبق على "صحة العقل والجسم، والسعادة بالمنزل والأهل والأصحاب"[٢]، وهذه الوسطية نجدها عند فلاسفة المسلمين في رؤيتهم للفضيلة حيث يرى مسكويه أن "الفضائل أوساطًا بين أطراف، وتلك الأطراف هي الرذائل"[٣]، كما يقول الفارابي بنظرية الوسط الفاضل "فالأفعال التي تحصل الخلق الجميل إنما تحصله متى كانت أيضًا بحال توسط"[٤] وهي النظرية التي ترجع إلى أرسطو.

يبحث الغلاييني في الأخلاق وهل هي فطرية أم مكتسبة، وهنا يتشابه الغلاييني مع الغزالي في أن لكليهما رأيين مختلفين في وراثة الأخلاق، فالغزالي "حين يقرر أن قلب الطفل جوهرة ساذجة خالية من كل نقش، وقابلة لكل صورة، يحكم بأن الأخلاق لا تورث. وحين يدعو إلى أن لا ترضع الطفل امرأة غير متدينة يحكم بأنها تورث"[٥] وهو نفس ما نجده لدى الغلاييني "فتعويد الأحداث على على العمل بالواجب منذ الصغر يربي في نفوسهم تلك العاطفة التي نريدها، وذلك الشعور الذي نتطلبه، فالتربية في الصغر كالنقش في الحجر... لأنه بحكم القسر والطبيعة مفطور على اكتساب ما يسمعه أو يراه من خير أو شر، نفع أو ضر، فهو بالقياس إلى ما يسمعه كالصدى "الفونوغراف" وبالنسبة إلى ما يراه كناقل الهيئة "الفوتوغراف" فكما أن الأول يحفظ في اسطوانته ما يلقى إليه من الألفاظ، والثاني ينطبع في زجاجته ما يكون أمامه من الأشباح والهيئات، ثم يبدي كل منهما ما أكنه وأخفاه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فكذلك الولد ينطبع في مرآة عقله ما يره من الأفعال، ويُنقش في صفائح ذهنه ما يسمعه من الأقوال، ثم يبدي ذلك للناس ويعاملهم حسب ما رآه وسمعه"[٦]. فالطفل كالمُستقبِل يتأثر بكل ما يحيط به، ويكتسب منه سلوكياته، فإن كان ما يتعلمه هو الخير كان سلوكه خيرًا والعكس صحيح. وهو ذات ما ذهب إليه الفارابي، حيث يرى أن " الأخلاق كلها الجميل منها والقبيح هي مكتسبة ويمكن للإنسان أن يحصل لنفسه خلقًا، ويمكن للإنسان متى لم يكن له خلق حاصل أن يحصل لنفسه خلقًا"[٧]. وبعد أن أكد الغلاييني دور التربية في اكتساب السلوك، وتحديد ما ستكون عليه تصرفات الإنسان، يعود ليؤكد دور الوراثة في تشكيل السلوك "فطبائع الآباءِ ربما تنتقل إلى بنيهم بطريق الإرث، حتى ذكروا أن بعض فلاسفة الأمريكان (اوليفيه ويندل هلمس) سُئل عن

(١) القرآن الكريم: سورة الإسراء، الآية٢٩

(٢) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٩٦

(٣) ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق في التربية، مرجع سابق، ص ٢١

(٤) الفارابي: رسالة التنبيه على سبيل السعادة، مرجع سابق، ص١٩٠

(٥) زكي مبارك: الأخلاق عند الغزالي، دار الشعب، القاهرة، د.ت، ص ١٦٤

(٦) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٣٥:٣٦

(٧) الفارابي: رسالة التنبيه على السعادة، مرجع سابق، ص ١٩٠، ١٩١

مبدأ تربية الطفل فقال: "تبتدئ تربية الطفل قبل أن يُولد بمائة سنة" يريد بذلك أن التربية تراث يرثه الولد عن آبائه، كما ورد في الحديث الشريف: "الرضاع يغير الطبع"*"[١] لهذا على الوالدين الحرص الشديد في تصرفاتهم لأنها تنعكس على أولادهم، وعلى الوالدين حتى لو لم تكن سلوكياتهم حسنة أن يتظاهروا بالسلوكيات الحسنة أمام أولادهم لأن ذلك يجعل الأبناء يتبعون هذه السلوكيات. وتعليمهم الحكم الخلقي السليم " إن جوهر التقدم الإنساني الحقيقي، ربما هو الذي يحدد أهم خطوة أساسية في تطور المدنية، هو تلك القدرة ... على الحكم الخلقي النفاذ"[٢]. وبذلك يؤمن الغلاييني بأن السلوك الإنساني هو نتاج الوراثة والبيئة في الوقت نفسه، وهو ما ذهب إليه الكواكبي فالأخلاق عنده " ثمار بذرها الوراثة، وتربتها التربية، وسقياها العلم، والقائمون عليها هم رجال الحكومة، بناء عليه تفعل السياسة في أخلاق البشر ما تفعله العناية في إنماء الشجر"[٣].

ونتناول فيما يلي أهم أفكار الغلاييني في شتى مجالات الأخلاق العملية أو التطبيقية، والتي نجدها واضحة في ثلاثة كتب له وهي أريج الزهر، وعظة الناشئين، والإسلام روح المدنية والتي تناول فيها التربية وكيف يتم تربية النشء في المنزل والمدرسة والمجتمع، والأخلاق العملية في الأسرة، وكذلك الأخلاق العملية للمعلم والحاكم، مختتمين بأخلاقيات النقد والإصلاح، وهو ما نتناوله بالتفصيل فيما يلي:

ثالثاً: الأخلاق العملية في التربية:

إن أي حضارة من الحضارات لها مقومات عليها أن تلتزم بها حتي ترتقي بين الأمم، فركنا الحضارة هما العلم والأخلاق، وإذا خلت حضارة من واحدة منهما تكون حضارة عرجاء، ومن ثم كانت الأخلاق ركيزة أساسية اهتم بها مفكرو الإصلاح ومنهم الغلاييني الذي يرى أن العلم والأخلاق هما طريق التقدم، فلا توجد أمة تقدمت وازدهرت حضاريًا دون أن يتزامن مع ذلك رقي أخلاقي في التعاملات المختلفة والتي تختلف باختلاف الأمة؛ لذلك علينا الاهتمام بالأخلاق التي تلعب التربية دورًا أساسيًا فيها، على أن تكون هذه الأخلاق نابعة من مجتمعنا بمكوناته المختلفة التاريخية والدينية وعاداته وتقاليده، لذلك " فلا رقي للشرق إلا بالعلم والأخلاق التي تناسبه، خصوصًا بالدين الذي

---

* روي هذا الحديث عن عبد الله بن عمر وفيه مسلمة بن علي الخشني وهو متروك الحديث، وروي عن عبد الله بن عباس وفيه عبد الملك بن مسلمة منكر الحديث وصالح بن عبد الجبار يروي المناكير وابن جريج ثقة ولكنه مدلس. ووضعه الألباني في السلسلة الضعيفة والموضوعة ٨/ ١٤١ وقال ضعيف جدا. ونتعجب كيف لشخص مثل الغلاييني أن يستعين بحديث ضعيف بهذه الدرجة، ولعله أخذه من باب الاستحسان.

(١) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٤٢:٤٣

(٢) د سعيد إسماعيل على: التربية في الحضارة المصرية القديمة، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٩٦، ص ١٢٣

(٣) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، مرجع سابق، ص ٧٩

يهذب الأخلاق، ويطهر الأعراق"[١]. وتلعب التربية دورًا رئيسًا في البناء الأخلاقي للأمة، فعليها تتوقف سعادة الأمم ونجاحها، وهي الجذور التي تنبت التقدم "فما من أمة وجدت التربية الحق في قلوب أبنائها متسعًا إلا بلغوا ما يأملون من رفاه العيش وسعادة الحياة. وبقدر التربية يكون في الأمم الرجال المفكرون الذين يبذلون وسعهم، ويُنفذون مجهودهم، لترقية أمتهم وأوطانهم"(٢). فالتقدم لا يحرزه إلا أصحاب التربية الصحيحة، والأخلاق القويمة، ممن يدركون المكانة الحقيقية لأمتهم، فإن كانت الأمة تمر بطور التأخر والانهيار سعوا للتقدم بها وعلاج أمراضها وتخليصها مما ألم بها من جهل وفقر ومرض وفساد وتخلف، وإن كانت أمتهم في طور التقدم والازدهار سعوا للحفاظ عليه وزيادته للارتقاء بها أكثر مما هي عليه. وبقدر ما تقوم الأمة على جناحي العلم والأخلاق الناتجة عن التربية السليمة، وبقدر أهمية التعليم "ولكن التربية أشرف وأنبل، وأعظم وأجل. فإن العاقل الخبير، والناقد البصير، يرى من نفسه ارتياحًا لقومٍ حسنت تربيتهم، ونبلت أخلاقهم، وكرمت نفوسهم، ولو كانوا غير متعلمين. ولا يرى هذا الارتياح وذلك الأُنس بفئةٍ من المتعلمين، ليس عندهم من التربية الصحيحة ما يرغب الناس في مخالطتهم والأُنس بهم"[٣] دون أن يعني ذلك الاهتمام فقط بالتربية وإهمال التعليم، فبدون العلم والتعليم لن تتقدم الأمة، والعلم أساس الحضارة، لهذا كانت الدعوة للتعلم والتعليم من أهم ما دعا إليه الإسلام وحرص عليه، وإنما القصد ضرورة الجمع بينهما، بعد أن اهتم الناس بالعلم واعتبروه الوسيلة الوحيدة للتقدم وأهملوا التربية والأخلاق " القصد أن التربية والأخلاق ومعرفة الواجب، خير من العلم المجرد عن التهذيب والآداب والأخلاق الفاضلة، وهذا أمر لا ينكره عاقل، وما أحلاهما إذا اجتمعا في المرء"[٤]. وهذا التمييز بين التعليم والتأديب انتبه إليه الفارابي حين حاول إقامة مدينة فاضلة فنجده قد ميز بين التعلم والتأدب "فالتعليم هو إيجاد الفضائل النظرية في الأمم والمدن، والتأديب هو طريق إيجاد الفضائل الخلقية والصناعات العملية في الأمم"[٥]. والهدف من التربية وغرس القيم الخلقية في نفوس الشباب هو صالحهم الشخصي بأن يكونوا أشخاصًا أسوياء، وفي الوقت نفسه صالح الأمة التي يشكل الشباب مستقبلها، فلكي نعرف ما سيكون عليه مستقبل أي أمة علينا النظر لشبابها وتفحص أحوالهم "لأن نشء كل أمة عنوان مستقبلها ومادة ترقيها، فإن رأيت نبتًا مهذبًا ونشأً متعلمًا، فابشر بآتٍ حميد ومستقبل زاهر، وبشرها بأن ستكون أمة حية، تنال طلباتها، وتفوز برغباتها. وإن وجدت شبانًا جاهلين، ونابتة فاسدة الأخلاق، سافلة المبادئ، فاقرأ عليها آية التأخر، ثم أنذرها بالخراب، وحق لها أن ستكون نبهًا

---

(١) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٨٢

(٢) السابق: ص ٣٥:٣٦

(٣) السابق: ص ٣٩

(٤) السابق: ص ٤٠

(٥) الفارابي: تحصيل السعادة، مرجع سابق، ص ٧١

مقسمًا، تعبث بها أيدي اللاعبين"[١].هذه العبارات التي قالها الغلاييني هي بالحقيقة تكشف عن حالنا اليوم من انهيار أخلاقي وتدهور في كافة المجالات مما جعل الأمة ألعوبة في يد القوى الكبرى تحركها وتقسمها وتثير فيها الحروب والفتن كما تشاء، ومن ثم فنحن في أمس الحاجة إلى إعادة تأهيل شبابنا ثروة الأمة. ومد يد العون لهم بكل السبل السليمة، للأخذ بيدهم نحو الأخلاق والسلوكيات القويمة. وهو أمر رغم أنه يستغرق سنين، إلا أن فيه تأهيلهم للقيام بواجبهم نحو الأمة والوطن والناس أجمعين. هذا التأهيل أو كما يسمى التربية يمر بثلاثة مراحل هي:

١- التربية المنزلية:

تبدأ تربية الطفل في الأسرة حيث الجماعة الأولى التي ينتمي إليها، وعادةً ما تكون سلوكياته وفق ما تكون عليها، فالطفل متى تخطى مرحلة الطفولة تصعب تربيته وتأديبه، وقد يكون قد اكتسب سلوكيات شريرة لا يصلح معها تربية فتربية " الشبان بعد أن تتأصل فيهم شأفات الجهل وفساد الأخلاق فهي عسيرة. وأعسر منها تأديب الكهول والشيوخ. وهؤلاء قد ينفعهم التعهد بالوعظ والإرشاد من حين إلى آخر"[٢]. فإن نشأ الطفل على الخلق القويمة والأخلاق الفاضلة، واعتاد صحة الرأي وصدق العزيمة، كان كرم الأخلاق والشجاعة وحب الخير، وسيلته للابتعاد عن كل مرذول وشر " ومتى كان كذلك فيرجى من الناشئ أن يكون عضوًا صحيحًا في جسم الأُمة، يبذل روحه ودمه في خدمة أوطانه ودولته، لأنه يكون بمقتضى تلك التربية مُجبرًا مقهورًا على أداء الواجب نحو الأُمة (ولو كان في زمن حرية القول والعمل) إذ ليس منشأ ذلك الإجبار أو القهر السلطة الاستبدادية... بل هو تلك العاطفة التي رباها المربي، وعمل على إحيائها العلم الصحيح – ألا وهي الضمير– هذا الضمير أو تلك النفس الطاهرة هي التي تجبره على خدمة وطنه وأمتهِ ودولته، ولا تحصل تلك العاطفة بغير التربية الصحيحة. فالتربية جماع الخير كله، وأساس الفضائل بأسرها"[٣]. لهذا على الآباء تربية أولادهم تربية قويمة، وتعويدهم على كل الفضائل والأخلاقيات السليمة، فما يزرعونه اليوم سيحصدونه في الغد. ولكي يقوم الوالدان بتربية أولادهم تربية سليمة، يجب أن يكون الوالدان أنفسهم على معرفة بكيفية القيام بهذه التربية، فلا يكفي أن يكون الوالدان من ذوي الأخلاق القويمة، بل عليهما تعلم كيفية تربية أولادهم عليها، حتى يمكنهما تربية أولادهم تربية صحيحة، ولا يضروا أولادهم من حيث أرادوا نفعهم. وخير وسيلة للوصول لتربية الولد تربية سليمة هي " تربية ملكة الفضيلة في نفسهِ، وتعويدُهُ الأعمال الصالحة، بالحسنى والكلام اللين، دون أن يستعمل القسوة والشدة إلا عند الحاجة الماسة. وقد يجدر به أن يتغافل عن بعض أعماله، ويوعز إلى أمه أو أحد

(١) مصطفي الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٧٨

(٢) السابق: ص ٤٢

(٣) السابق: ص ٣٩

أصدقائه أن ينصح له وينبهه على خطئه، دون أن يعلم أن أباه قد علم بذلك. ولا ينبغي أن يعرفه أنه عالم بكثير من سيئاته لئلا تقل هيبته في نفسه، ويذهب بعض احترامه واحتشامه من قلبه"[1]. فعلى الأهل غرس الفضيلة في نفوس أبنائهم من الصغر حتى يعتادوا عليها وتصبح جزءًا من مكونات شخصيتهم، وتعويدهم على القيام بالأعمال الخيرة الصالحة.

يحدد الغلاييني دور الأم والأب في التربية، ويشدد على أن تكون التربية بالحسنة والإقناع والتعليم المباشر وغير المباشر، بالنصيحة وبالسلوك فيكون الوالدين قدوة للأولاد، دون استخدام الشدة والقسوة إلا في حالات السلوك الشاذ غير المعتاد. كما يحذر من أن يتشاجر الآباء أمام الأبناء، أو أن يصدر منهم أي سلوك غير مقبول أمام أبنائهم، حيث يحفر هذا السلوك في عقولهم، والطريق لذلك أن " يعرف كل من الزوجين ما لأحدهما على الآخر من الحقوق فيؤديها. وإلا كان خصامهما وتنافرهما ضربة قاضية على البنين والبنات، لأنهم يحفظون من الآباء والأمهات روايات سيئة يمثلونها متى بلغوا مبلغ الحياة الزوجية"[2]، فما يزرعه الآباء في أبنائهم في الطفولة، يحصدونه عند الكهولة. وعلى الآباء الحذر عند الحديث أمام الأبناء فلا تصدر منهم ألفاظًا غير مقبولة، وعليهما أن يمنعا الآخرين من ذلك أمام الأبناء فلا " يتكلم أحد بحضرة الأطفال والناشئين بما ينافي التربية القويمة من ألفاظ الفحش والبذاءة، وكلمات التخويف والتهويل: كالبعبع والجن والعفاريت، وغير ذلك مما يحدث في نفوس النابتة أثرًا سيئًا، لا يمحوه مرور الأعوام، ولا مرور الزمان. لأن ما ينطبع في الناشئ لا يفنى إلا بفناء جسمه، ولا أدري إن كان يصاحب روحه بعد موته أيضًا"[3]. وقد كان ذلك ممكنًا في عصر الغلاييني حيث لا يختلط الأطفال إلا فيما ندر بغير أفراد الأسرة في هذه المرحلة في عصره، أما اليوم وفي ظل وسائل الإعلام المعاصرة، وما يسمعه الأطفال في وسائل المواصلات المختلفة، فقد أصبح هذا الأمر من أصعب ما يكون على الوالدين.

وعلى الوالد تحديدًا أن يتغافل عن بعض أخطاء ابنه وكأنه لا يعلمها، ويخبر الأم بما حدث من الولد والخطأ الذي وقعه فيه، وما يجب أن يكون سلوكه عليه، على ألا يخبره بمعرفة الوالد بما حدث منه، ومغبة علمه بسلوكه وبالخطأ الواقع منه ومدى ضرر علمه به عليه، فتستمر هيبة الأب في نفس الابن ويحرص على ألا يقع في الخطأ الذي تم تحذيره منه، فكثرة المواجهات بين الأب والابن تزيد الجفاء بينهما، وترفع هيبة الأب من نفس الابن، وربما تجرؤه على ارتكاب الأخطاء ذاتها، بعد أن عرف مغبة القيام بها. وكان الغلاييني ينصح بأن يقوم بدور الوسيط في هذه العملية الأم أو أحد الأصدقاء، غير أن ذلك مشروط بألا يكون هذا الصديق من أصدقاء السوء، وما أكثرهم في هذه الأيام، ممن يظهرون أمام آباء الأصدقاء بمظهر الملائكة أصحاب الفضيلة، بينما هم مع أبنائهم

(١) السابق: ص ١٢٨

(٢) السابق: ص ٤٣

(٣) السابق: ص ٤٦

شركاء في كل شر ورذيلة. لذا إما أن يتحرى الآباء في هذه الحالة أن يكون أصدقاء أبناهم يستحقون هذه الثقة، أو يلجئون فقط للأم في أي فعل من الأبناء يشكل أزمة أو ضائقة.

أما الأمهات فعليهن الحذر من الاعتماد في تربية الأطفال على المربيات، فلا يؤمن على الأطفال معهن، فإن أمنت عليهم معهن جسديًا لا تأمن عليهم معهن أخلاقيًا، حيث "يتصرفن فيه بسوء أخلاقهن وشر عاداتهن. وإنا لنرجو من السيدات أن يتحملن تلك المشقة، مشقة التربية والتهذيب بأنفسهن، فهي في الحقيقة راحة وحسن مستقبل لأولادهن"(١). وكان الغلاييني يحذر من ذلك في بدايات القرن العشرين حين كانت المرأة متفرغة لبيتها، فما بالنا لو كان يعيش بيننا اليوم ورأى الطبقة العليا في المجتمع قد تركن أطفالهن بشكل كامل للمربيات مصريات وغير مصريات، مسلمات وغير مسلمات، يتولين كل ما يخص أطفالهن من مستلزمات، ويشكلن سلوكهن بما لديهن من تقاليد وعادات، متطبع بسلوكهن بما فيه من خيرات وسيئات، ونسين أن دورهن الأساسي هو رعاية أبنائهن البنين والبنات.

فإن لم يفعل الآباء ما سبق فلا يلوموا إلا أنفسهم حين ينشأ أولادهم نقمة عليهم، وبدل من أن يكون وسيلة لإسعادهم يتحولوا لسبب من أسباب شقائهم. " كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) (٢)· غير أننا لو بحثنا عن سبب شقاء هؤلاء البنين لظهر لنا بعد الاختبار أن السبب الحقيقي هم الآباء، ولولاهم لكان البنون أسعد حالاً مما هم فيه"(٣) ذلك أن الأبوين قد أهملا الطفل ولم يحسنا تربيته وتعليمه، ولم ينهياه عن الشاذ وغير المقبول من سلوكه، خوفًا من أن يبكي الطفل، أو يملأ المنزل صياحًا، فإذا كبر الطفل ودخل المدرسة يتعلم فيها علمًا ولا يتعلم خلقًا ليخرج منها أسوا مما دخل " وأكثر من يتخرج من المدارس يبقى عالة على أبويه دون أن يسعيا لإيجاد عمل يحفظ عليه مستقبل حياته، فيظل شابًا فارغًا من الأعمال، مضيعًا أوقاته في اللهو. وهذه الحال تتطلب أموالاً كثيرة، فتفسد أخلاقه، ويصير الكسل عادة له... فإن كان أبوه غنيًا عاش في ثروته كما يعيث الذئب في الغنم. وإن كان فقيرًا تكلف من المشقة والنصب ما لا يطاق، لأجل أن يأتي له بما يطيب به خاطره وتأنس به نفسه، لينفقه على شهواته وملذاته، وكلا هذين الأبوين غير سعيدين في ولدهما، بل يتمنيان أن لا يكون قد وجد"(٤). وكأن الغلاييني يتحدث عن أيامنا الحاضرة حيث لم تعد المدارس تقوم بدورها العلمي والتربوي، ولحقت جامعاتنا بمدارسنا،

(١) ا مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٤٣

(٢) القرآن الكريم: سورة التغابن، الآية ١٥

(٣) مصطفى الغلاييني: مرجع سابق، ص ١٢٤

(٤) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ١٢٤

وزادت البطالة وأصبح الشباب روادًا للمقاهي، وقضاء يومهم وليلهم فيما لا يفيدهم ولا يفيد أهلهم ولا وطنهم. بل قد يصل بعضهم لقمة الانحراف في سلوكهم، فيعتدون على الآباء والأمهات للحصول على الأموال لممارسة نزواتهم، ويتمنون من صميم قلوبهم وفاة آبائهم ليرثوا أموالهم كي ينفقوها على شهواتهم، بل قد يتعجل بعضهم ذلك. لكن ذلك لا يعني أن كل الأبناء أصبحوا كذلك فهناك " طائفة عظيمة من الأولاد على غير هذه الشاكلة، فهم يستميتون لأجل آبائهم، ويخدمونهم خدمًة صادقًة، وما ذلك إلا لأنهم عرفوا مقام الأبوة منذ صغرهم، فعظموهم في كبرهم"(١). وهؤلاء من اعتنى بهم آبائهم وبذلوا الغالي والنفيس في تربيتهم، والحفاظ عليهم والارتقاء بأخلاقهم، واهتموا بتلقينهم وتعليمهم وتعويدهم على الفضائل الحميدة، وذودوهم بخبراتهم لتصبح حياتهم جميعًا سعيدة.

٢- التربية المدرسية

بعد أن تقوم الأسرة بتربية طفلها في مرحلة الطفولة المبكرة، ينتقل إلى المدرسة حيث تبدأ حياته العملية، ويبدأ تعليمه العلوم الدينية والدنيوية، وتلعب المدرسة دورًا هامًا في تنشئة وتربية الطفل، حيث تعد البيت الثاني له، وفيه يبدأ في الاختلاط بالمجتمعات الخارجية، حيث يقابل غيره من الأطفال من أسر مختلفة ذات وسائل تربوية متعددة، فإما أن تواصل دور البيت في التربية القويمة، أو يختلط فيها بما يقضي على ما تم غرسه به من الفضيلة، لهذا يجب على الآباء اختيار المدارس الصالحة لأبنائهم " فإن كان من حسن حظ الطفل أنه وجد في مدرسة مستوفاة الشروط، من حسن التربية والتهذيب، فتلك سعادة فوق سعادة. وإن وجد في مدرسة فسدت أخلاق طُلابها والقائمين بأعبائها، فهناك الطامة الكبرى، والبلبلة العظمى. إذ هناك يتصرف الطلبة بأخلاق بعضهم والمعلمون بأخلاق تلاميذهم"(٢). ويجب اختيار من يصلحون لتلقي العلم " فلا يحدث الحديث من لا يعرفه فإن من لا يعرفه يضره ولا ينفعه، فمن إضاعة العلم أن يحدث به من ليس له بأهل"(٣).

وفي المدرسة تختلف وسائل التهذيب والتربية، باختلاف المعلمين والمربين ورؤاهم التربوية، وتتنوع هذه الطرق ما بين طرق مرفوضة عند الغلاييني وأخرى مقبولة، ومن الوسائل التربوية المرفوضة أن يرى بعض المعلمين والمربين أن التربية "لا تكون إلا بالقسوة والشدة والضرب، وغير ذلك من الوسائل التي كانت محظورة في أيام الاستبداد، فأحرى بها أن تكون كذلك في أيام الحرية والعدل. فالتهذيب على تلك الصورة هو من الأعمال الوحشية، وهو بقية من بقايا الهمجية، لأنها تُفقد الناشئ ذلك الخُلق الكريم، وهي الشجاعة التي هي ملاك كل فضيلة"(٤). وبذلك

(١) السابق: ص ١٢٧

(٢) السابق: ص ٤٣

(٣) الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق د محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ج١، ١٩٨٣، ص ٣٢٧

(٤) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٤٥

انتبه الغلاييني إلى ضرورة عدم الاعتماد على القسوة والإيذاء البدني في التربية المدرسية، وهذا السلوك قد يصل بالأطفال إما إلى أن يصبحوا جبناء لا شخصية لهم ولا فائدة ترجى منهم لأنفسهم وأهلهم ووطنهم، أو إلى استمراء العنف، فلا يؤثر فيهم بعد فترة من اعتياده، ويحولهم إلى مجرمين قساة القلب يمارسونه ضد من يقدرون على الاعتداء عليه. كذلك من طرق التربية المرفوضة أن تكون التربية "بشتم النشء وسبهم وإهانتهم وتخويفهم، وغير ذلك مما يربي في نفوسهم الذل والهوان والصِغار. فالتربية على هذه الصفة تُفقد الناشئ كل شعور وإحساس، وتنزع عنه كل صفة من صفات الخير والكمال، وتجعله عرضة لكل مؤثر، وآلة صماء بيد كل مدير، فلا يتحرك لأمر، ولا يتأثر من هوان، فالموت والحياة لديه سيان"(١). فهذه الطريقة تجعل الطفل والشاب ينشأ لا كرامة له يعتاد الإهانة فلا تكون لديه غيرة على بيته وأهله ووطنه، وبالتالي يتحول لمجرد أداة يتحكم بها الآخرين كل حسب ما تقتضي مصلحته. ويبدو أن استخدام هذه الوسائل العنيفة في عصر الغلاييني في المدارس كان شائعًا لذا فقد أولاه اهتمامه، وإذا كان العنف في التربية متمثلاً في الإيذاء البدني والمعنوي من الممارسات الشائعة في عصر الغلاييني، فيمكننا القول بأن التربية المدرسية في عصرنا الحالي تتجاذبها المتناقضات. ففضلا عن ممارسة العنف من قبل بعض القائمين على التربية، نجد- على الجانب الآخر- إفراطًا في تدليل الطلاب في المدارس. وهذا الإفراط في التدليل نجم عن عاملين في غاية الخطورة: إما خوفًا من عنف البعض منهم، أو خوفًا من عدم تفهم ذويهم لمعنى التربية وأهميتها في المدرسة ورفضهم لتوقيع أي عقاب على أبنائهم المخطئين، أو كنتيجة لجشع بعض المعلمين ممن نسوا دورهم كمربين وأنحسر هدفهم في استقطاب الطلاب للدروس الخصوصية، مما جعلهم يتهاونون في كل ما يتعلق بالتأديب والتربية.

والتربية المدرسية الصحيحة - كما يراها- الغلاييني هي تلك التي اتفق عليها العقل والنقل، وهي التي تكون " بتعويد النشء الفضائل، وإرضاعهم المحامد، وتغذيتهم بما ينير الأذهان، ويوسع نطاق العقول، مع لبن التربية ودروس العلم، بلا خوف ولا إهانة ولا ضرب، بل بالترغيب والتنشيط، وتمثيل الفضائل بصورها الكاملة، ومستقبلها الحسن، وتمثيل الرذائل والأخلاق السافلة والكسل، بصورها القبيحة، ومستقبلها السيئ"(٢). ولكي يحدث ذلك يجب أن يكون المعلمين والمربين ممن يتصفون بالسلوك القويم والعلم السليم، الكفيلين باقناع الطلاب بالتفرقة في السلوك والعلم ما بين الغث والسمين.

(١) السابق: ص ٤٥

(٢) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٤٦

٣- التربية العملية

كل ما ذكر في المرحلتين السابقتين ما هو إلا محاولة لتدشين أخلاق نظرية للنشء ثم تأتي المرحلة المتممة وأقصد بها التربية العملية، والتي لا تقل أهمية عن سابقتيها بل تزيد أهمية عنها، فبعد أن ينهي الطالب تعليمه ينتقل إلى الحياة العملية والتي بمثابة المرحلة الأهم في الحياة، وعلى الرغم من كونها نتاجًا لما قبلها، إلا أن التربية لا تتوقف خلالها، وتقوم التربية في هذه المرحلة على ذات الأسس التي قامت عليها في المراحل السابقة لها من المحافظة على الآداب والأخلاق والارتقاء بالنفس والسمو بها. وفي هذه المرحلة ينشغل الشباب بالعمل ويزيد وجودهم خارج المنزل لهذا ينصح الغلاييني بأن " يبتعد الشاب عن أقوام فسدت أخلاقهم، وخبثت ضمائرهم، ليس لهم هم إلا الفساد وتدنيس شرفهم وأعراضهم بقاذورات المواخير والحانات والميسر"(١)، ذلك أن الاختلاط بهذه النوعية من الناس من شأنه أن يطبع سلوكه بسلوكياتهم ويهدم ما تم بناؤه فيما سبق من التربية ويُلحِق به الأدناس، فهناك شباب رغم حسن تربيتهم وتأديبهم، بعد أن يخرجوا للعمل يحيط بهم ذوو الأخلاق المذمومة، فيفسدوا عليهم أخلاقهم وسلوكياتهم التي كانت قويمة، فيخسروا أموالهم وعقولهم. و تكمن المشكلة الحقيقية في أن هؤلاء الشباب قد أصبحوا القوة العاملة في الأمة، ويتوقف عليهم ازدهارها وضعفها، وبدون الخلق القويم لا أمل في التقدم والازدهار، كما أنهم بمرور الوقت يصبحون بدورهم آباء وأمهات للأجيال الجديدة، لهذا يعجب الغلاييني " بقول الفيلسوف الطويراني*: "كل جيل من البشر هو عنوان ما قبله، ومقدمة ما بعده، وشبانُ كل عصر كبار آتيه وصغار ما فيه. فكيفما كانت مقدمات الأعمال في أُمة، كانت نتيجة الآمال فيها"(٢).

في حين كان الوالدان هما المسؤولان عن التربية في المرحلة الأولى، والمدرسة والمعلمون هم المسؤولون في المرحلة الثانية، فإن الحاكم يصبح هو المسؤول عن التربية في هذه المرحلة، والمقصود هنا بالحاكم ليس شخص الحاكم وإنما السلطة الحاكمة التي تتكون من كل المؤسسات الحاكمة في الدولة سواء كانت المؤسسة التشريعية أو التنفيذية أو القضائية "فيجب على القوة الحاكمة أن تبحث عن الشرور وأصحابها، وتنقب عن مواضع قتل العقل والشرف، وإهلاك الأجسام، وإتلاف الأموال، فتقفلها. وإن لم تفعل ذلك، ضاع مستقبل الشبان، ورجعوا بخفي حنين، بعد عناء

---

(١) السابق: ٤٧، ٤٨

* المقصود هنا حسن حسني باشا الطويراني، ١٨٥٠- ١٨٩٧ مصري المولد، تركي الأصل، صاحب مجلة الإنسان صدرت في تركيا ١٨٨٤، وجريدة الاعتدال، وفي مصر أصدر جريدة النيل ومجلات الشمس والزراعة والمعارف، ذو نزعة إسلامية قوية، من أشهر كتبه "النصيح العام في لوازم عالم الإسلام"، "الصدع والالتئام في أسباب انحطاط وارتقاء الإسلام"، "الإخاء العام بين شعوب الإسلام". رثى أحمد فارس الشدياق صديقه المقرب عند وفاته ١٨٨٧، ورغم تشابه أفكاره ومعاصرته لشكيب أرسلان إلا أن الأخير تجاهل وفاته رغم رثائه لفارس الشدياق قبله.

(٢) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٤٩

التربيتين"[١]. ولا عذر لهذه المؤسسات في إهمالها القيام بواجبها، ففي هذا الإهمال قضاء على حاضر الأمة ومستقبلها، لذا عليها منع كل ما يضر الشباب والقضاء عليه، فتعمل "على تخلصيهم مما هم فيه من الفساد والفجور. ولا تتوهم أن القانون يبيح أمثال هذه الشرور والموبقات، كلا، إن القانون أباح الحرية الشخصية بشرط أن لا يتعدى ضررها إلى الغير. وأفعال الشبان متعد ضررها إلى غيرهم. ولا يظنن ظان أن الحكومة لا تقدر أن تمنع الشخص من عمل يضر بنفسه لا غير. بل هي مفوضة في منعه من كل ما يضر به وبغيره"[٢]. وهنا يأتي دور جميع مؤسسات الدولة قاطبة، فالسلطة التشريعية تسن من القوانين ما يقضي على كل ما يفسد الأخلاق ويدمرها، ويبعد الشباب عن قيمهم وتقاليدهم ودينهم، ثم يأتي دور السلطة التنفيذية في القيام بتنفيذ هذه القوانين بمنتهي الحسم والمساواة والعدالة، فإن خرج أحدهم عن هذه القوانين كانت العدالة الناجزة هي وسيلة الإصلاح والعقاب لتحقيق الردع العام والخاص. ولا شك أن هذا التدخل قد أصبح واجبًا في عصرنا الحالي أكثر مما كان عليه في عصر الغلاييني، حيث زادت المنكرات، وانتشرت الملهيات، وعم وساد الفساد، وانتشر بين العباد، ولم تعد القوانين رادعة لزجر المجرمين والفاسدين، عما هم فيه من إصرار على الجريمة والمجون، وانتشر الفساد في السلطة بكافة فروعها.

وفي هذه المرحلة يجب على الدولة انتقاء المتميزين من أبنائها وإرسالهم للخارج لتلقي العلم من منبعه لإحداث نهضة علمية، وبالتالي نهضة في كل المجالات في المجتمع اقتصادية وسياسية واجتماعية. غير أن ذلك مشروط بأن "يعودوا كما ذهبوا: من غير أن تؤثر في نفوسهم عادات الغربيين وأخلاقهم التي لا تمتزج بعاداتنا وأخلاقنا. فليس كل ما يأتيه الغربي بنافع لنا. ورب عادات لأولئك القوم يعدونها من أصول المدنية، ونعدها من فساد الأخلاق، والتوحش الذي لا يطاق، فإن العادة تختلف حسنًا وقبحًا باختلاف الأمة والبيئة التي تقطنها. إن بعض من يرحل إلى الغرب تؤثر في نفسه عادات أهله وأخلاقهم وسياستهم، فإذا رجع إلى قومه، أخذ يحدثهم بما رآه، وربما استحسن كثيرًا مما نراه مخالفًا لأخلاقنا وعاداتنا، وما فطرنا عليه من التعاليم الدينية... والسر الذي يدعو بعض الراحلين إلى الغرب إلى استحسان ما قدمنا، هو أنهم لم يتربوا منذ نشأتهم تربية شرقية، ولم يتعودوا على الأخلاق الصحيحة، ولم تُغرس في نفوسهم أغراس الدين، حتى تكون طبيعة من طبائعهم، ولازمة من لوازمهم. وهذا نقص كبير في مدارسنا وبيوتنا يجب أن ينتبه إليه الآباء والمعلمون"[٣]. وهكذا يواجه الغلاييني مشكلة أساسية تواجه المبتعثين للخارج ما زالت قائمة حتى اليوم، وهي أن بعضهم في ظل انبهاره بما عليه الغرب من تقدم علمي ونظام في شتى مناحي الحياة،

---

(١) السابق ص ٤٨

(٢) السابق ص ٤٨

(٣) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٧٩، ٨٠

يتأثر بما عليه سلوكيات الغرب*، وهي سلوكيات ناتجة عن عادات وتقاليد استمرت لديهم عقودًا وقرونًا حتى استقرت وتناسب مجتمعاتهم ولا تناسب مجتمعاتنا بأخلاقنا وعاداتنا المستمدة من الدين والعرف والتاريخ، فيعودون إلينا بعد الانتهاء من البعثات بهذه السلوكيات التي تصطدم بالسياق الثقافي ونسق القيم السائد في مجتمعنا، فيرفض المجتمع هذه الأنماط السلوكية بل ويرفضهم فيبادلون المجتمع رفضًا برفض، وإما أن يعودوا مرة أخرى إلى الغرب فنفقدهم ونفقد علمهم وما هو منتظر منهم، أو ينعزلوا عن المجتمع ويتعالوا عليه فلا يستفيد من علمهم الذي أصبحوا عليه. ويبدو أن هذه المشكلة التي عرض لها الغلاييني كانت مشكلة عصره لذلك نجد الشيخ الإمام قد تعرض لها في كتاباته حيث رفض التقليد بكل أشكاله سواء كان تقليدًا لما جاء في التراث أو تقليدًا للغرب فكلاهما تقليد ونحن لم نخلق لنقاد ولأن الانقياد للغرب يكون أكثر لدى المبتعثين فقد أطلق عليها الإمام محمد عبده الاستغراب أي التأثر بالغرب في كل سلوكياته، هذه المشكلة القديمة الجديدة التي ما زلنا نعاني منها حتى اليوم ترجع إلى أن بعض المبتعثين لم يتم الاهتمام بهم وتأسيسهم بشكل صحيح يغرس في نفوسهم أخلاقنا وتقاليدنا ويمنعهم من التأثر بهذه السلوكيات، فانبهروا بما عليه الغرب من تقدم علمي والتزام بالقانون والنظام وظنوا أن ذلك يرجع فقط لأن الغرب هو الأفضل فاقتدوا به حتى في السلوكيات المرفوضة أخلاقيًا ودينيًا لدينا بينما " لدينا من الأخلاق العالية، والعادات الشريفة، ما هو خير لنا وأنفع لبيئتنا، ويجب أن نحتفظ به كل الاحتفاظ، ونزود عن حياضه بكل قوانا، لأن الأمة التي لا تحافظ على عاداتها ولا تدافع عن أخلاقها، لا يمضي عليها حين من الدهر حتى تكون كأمس الدابر"(١). وما وصلنا إلى ما وصلنا إليه من تدهور أخلاقي إلا لأننا نسينا ديننا وقيمنا وعاداتنا وتقاليدنا، وأصبحنا لا نطبقهم ونبتعد عنهم، ونرى الآخر يسلك مسلكًا أفضل فنقتدي به اعتقادًا أنه الأفضل، وننقل كل ما لديه من حسن وقبح السلوك، بينما الحق أننا لدينا ما إن تمسكنا به لن نضل أبدًا لكننا نسيناه ونبحث عن أساس جديد لا يتناسب معنا ولا مع حضارتنا، لهذا أرى أن محمد علي باشا كان الأكثر ذكاءً حين انتبه لهذه الخطورة فأرسل مع البعثة الأولى إلى أوربا

* يبدو أن هذه المشكلة التي عرض لها الغلاييني كانت مشكلة عصره، لذلك نجد الشيخ الإمام محمد عبده يتعرض لها في كتاباته حيث رفض التقليد بكل أشكاله سواء كان تقليدًا لما جاء في التراث أو تقليدًا للغرب، فكلاهما تقليد ونحن لم نخلق لنقاد، وما زلنا نعاني حتى اليوم من هذه الظاهرة التي أطلق عليها محمد عبده الاستغراب أي التأثر بالغرب في كل سلوكياته، لهذا اهتم بالتخلص "من تيار التغريب الذي لا يقل خطورة عن التيار التقليدي، والذي استقطب بدوره مثقفي الأمة الذين انبهروا بالغرب" د رجاء محمد على: مؤتمر الأمام محمد عبده مفكرًا ورائدًا للاستنارة، يوليو ١٩٩٧، ضمن كتاب د عبد الرحمن محمد بدوي: الإمام محمد عبده والقضايا الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥، ص ٧

(١)مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٨٠

عام ١٨٢٦ رفاعة الطهطاوي كإمام وواعظ للبعثة الطلابية إلى فرنسا بترشيح من شيخه حسن العطار حتى لا يفقد طلاب البعثة الأربعون دينهم وقيمهم وتقاليدهم وعاداتهم.

٤- القواعد الأخلاقية التي يجب تربية النشء عليها:

إذا كانت التربية تمر بثلاث مراحل فإن هذه المراحل تستلزم أن تكون هناك مجموعة من القواعد الأخلاقية التي يجب تربية النشء عليها حدد الغلاييني أهمها فيما يلي:

أ- ضرورة التمسك بالدين: أول ما يجب تربية النشء عليه هو التمسك بدينهم وتطبيق أحكامه والقيام بأوامره والابتعاد عن نواهيه، فالدين هو المرشد لصحيح العمل في الدنيا والآخرة، " الدين وضع إلهي. وحاشا لله أن يأمر عباده بما يقعدهم عن العمل الصالح، ويصد فيهم عن المعيشة الراضية. فالمدنية الصحيحة هي الدين الصحيح، فإن لم يكن كل منهما عين الآخر، فهما شقيقان، أبوهما الحق، وأمهما الحقيقة"(١).

ب- استبعاد العادات السيئة والتشجيع على العادات الصحيحة: فيجب فحص العادات المختلفة ومعرفة آثارها واستبعاد السيئ منها وتنفير النشء من القيام بها بالحكمة والموعظة الحسنة "والعادات السيئة عندنا كثيرة وهي تختلف قوة وضعفًا باختلاف أثرها، وسواء كانت هذه العادات شديدة الضرر أو خفيفته، فيجب أن يعمل العقلاء على إزالتها، وتطهير الأمة منها. فإن نزع العادات الضارة من النفوس هو العامل الأكبر الذي يتوقف عليه ترقي الأمة ونجاحها، ونهوضها وفلاحها، وإصلاحها وصلاحها"(٢).

ج- الإيثار وحب الغير: فمن أسوأ الصفات الإنسانية الأنانية وحب الذات على النحو السيئ، فحب الذات يطلق على معنيين: "أحدهما مذموم هو أن يميل إلى الاستبداد بالأمر، والامتناع بالمنفعة دون غيره، ويبذل ما في وسعه وطاقته لسد أبواب الخير عن سواه، وتضحية المئات من منافع الخلق في سبيل خير جزئي يعود له، أو نفعٍ قليل يرجع إليه. فحب الذات بهذا المعنى رذيلة... وأما حب الذات بالمعنى الثاني: فهو أن يسعى المرء لما يعود عليه بالنفع، بشرط أن لا يلحق بغيره ضررًا. فهو بهذا المعنى ممدوح مطلوب، بل فضيلة عليها قوام أمر المدنية وعمارة هذا الكون، إذ من المحال أن يعمل أحد عملاً لا ترجع له منه فائدة دنيوية أو أخروية"(٣). وحب الذات من النوع الأول من شأنه أن يقضي على صاحبه وعلى الأمة ولا يستفيد منه أحد، بل يضر الجميع، ويجعل صاحبه عبدًا لشهواته وملذاته، يتعالى على الجميع ويظن نفسه خيرًا منهم، ومن ثم علينا تربية النشء على الابتعاد عنه والنفور منه ونصيحة صاحبه. أما حب الذات من النوع الثاني فهو الذي

---

(١) مصطفي الغلاييني: عظة الناشئين، عظة الناشئين كتاب أخلاق وآداب واجتماع، ط ١٢، ص ٧٣

(٢) مصطفي الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ١٥١

(٣) السابق ص ٥٣

يكون فيه خير الإنسان والأمة، فلو لم يحب الإنسان ذاته ما سعى لخيرها في الدنيا والآخرة وهو ما لا يحدث إلا بأن يحقق خير الآخرين.

د- الاستقلال الشخصي أو الاعتماد على النفس: التواكل والاعتماد على الغير وعدم الاستقلال أهم أسباب تخلف الأمم، فالفرد حين يعتمد على الآخرين تقل عزيمته ويضعف اجتهاده وينعدم إبداعه، ومجتمع متواكل معتمد على الغير في كافة مشارب الحياة هو مجتمع في قاع الأمم لا يستحق الوجود، ألعوبة في يد المجتمعات المتقدمة العاملة التي يعتمد فيها الأفراد على أنفسهم فيقدمون على العمل من أجل الارتقاء بأنفسهم وأمتهم، والاستقلال الفكري. والاعتماد على النفس يعني "أن لا يترك العمل والتفكر اتكالاً على غيره يعمل أو يفكر، بل ليفتكر ويعمل هو أيضًا، فإن كان فكره وعمله خيرًا من فكر غيره وعمله، فبها ونعمت، وإلا انقاد لفكر سواه وعمل به، وبذلك يكون مستقل الفكر أيضًا، إذ لم يجبره أحد على اتباع غيره أو عدم اتباعه"(١). فالاستقلال الفكري لا يعني أن يرفض المرء الاستماع للآخرين والأخذ برأيهم ومشورتهم، وألا يكون منقادًا للغير بشكل دائم، فعليه الاستماع إلى الآراء المختلفة ثم التصرف وفق ما يرى أنه صواب سواء كان رأيه أو رأي غيره، وفي هذه الحالة حتى لو اختار رأي غيره سيكون رأيه هو لأنه اختاره وقرر تنفيذه عن قناعة تامة منه بصحته.

هـ- الطموح والسعي للأفضل دومًا: فقد خلق الله الإنسان وفي نفسه الإمكانية والقابلية والاستعداد لكل شئ، للرذيلة والفضيلة، للخير والشر، للإيمان والكفر، غير أن " بعضها يكون الاستعداد فيه عظيمًا، والآخر يكون فيه وسطًا، وغيرهما يكون فيه متدنيًا أو مغشي، بحيث يُعتبر كأنه غير موجود. ثم خلق لهذا الاستعداد والقابلية أسبابًا ووسائل، أو مؤثراتٍ وفواعل، تعمل محراثها في أرضها ليظهر ما كمن فيهما من خير وشر على مقتضى ذلك المؤثر. فإن لم يوجد في المواليد استعداد لقوة ذلك المؤثر فيكون المؤثر كالعدم، وهكذا أن عدم المؤثر مع وجود القابلية في المواليد فتكون القابلية كالعدم أيضًا"(٢). وبذلك يتخذ الغلاييني موقفًا وسط بين القائلين بالحرية المطلقة والجبرية المطلقة، فالإنسان يولد ولديه إمكانيات واستعداد لكل شئ سواء كان الخير أو الشر، ثم تأتي البيئة وتمده بمؤثرات تساعد هذه الإمكانيات الكامنة بداخله على الظهور، فلا هو حر بشكل مطلق ولا هو مجبر بشكل كامل. ومن هنا كان علينا تعليم أولادنا وتربيتهم على السعي الدائم للكمال، واستخراج الإمكانيات الكامنة في أعماقهم للفضيلة والخير والتطور، والابتعاد عن الرذيلة والشر والجمود.

وبشكل مجمل فإنه يجب تربية النشء على "الشجاعة، والإقدام، والجود، والصبر، الإخلاص في العمل، وتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وشرف النفس، والجرأة الأدبية، والدين الخالص من الشوائب، والمدنية المنزهة عن الفساد، والحرية الصحيحة في القول والعمل، وحب

(١) السابق ص ١٥٦

(٢) مصطفى الغلاييني: أريج الزهور، مرجع سابق، ص ١٦٥

الوطن. وعلينا أن نربي فيه ملكة الإرادة والصدق، وحب إعانة البائسين، والمشروعات النافعة، وأن نعوده القيام بالواجب إلى غير ذلك من الأخلاق الشريفة، وأن نباعد بينه وبين أضداد هذه الأخلاق"(١).

ويتضح مما سبق أن الغلاييني في آرائه التربوية كان متأثرًا بالرؤية الإسلامية التي وردت في القرآن وصحيح الحديث وكتابات التربويين المسلمين وعلى رأسهم الفارابي ومسكويه والماوردي ت١٠٥٨ والغزالي وكذا جل الإصلاحيين الذين انتهجوا نهج محمد عبده القائم على تجديد الخطاب الديني كقاعدة للإصلاح الاجتماعي والسياسي. فالأخلاق هي الأصل الذي يجب أن تنطلق منه جل المشروعات الإصلاحية.

رابعًا: الأخلاق العملية في الأسرة

سبق أن ذكرنا أن الأسرة هي النواة الأولى، وإذا صلحت صلح المجتمع بأسره، ومن ثم كان اهتمام الغلاييني شأنه شأن غيره من المفكرين بالأسرة*، وهنا نجد أنفسنا بإزاء محلل نفسي يتأمل المجتمع ويرى أن الاهتمام بالطفل يبدأ قبل ولادته فالتربية لا يبدأ مع إنجاب الأطفال بل يبدأ بالزواج باختيار الزوج والزوجة الصالحين، والزواج هو المؤسسة الأولى في المجتمع، فإن استقامت أخرجت ناشئة نافعين لأنفسهم وأسرهم ولمجتمعهم وأمتهم. ويبدأ تكوين الأسرة بأن يدرك كل من الشاب والفتاة أهمية الأسرة والزواج فيكونا "عارفين واجباتهما والأسباب التي تثبت دعائم الألفة وتكمن علائق المودة. وإلا كانت عيشتهما شقاءً، وكان الممات خيرًا منها. هذا إن لم يشتد البغض ويقو النفور إلى درجة عدم الميل المطلق، فإن وصلا إلى هذه الغاية من الوحشة والشحناء، فهناك انقطاع النسل وخراب العمر، وضياع تلك السعادة التي ما اقترنا إلا لأجلها"(٢). وذلك مصداقًا لقوله تعالى {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (٣) ولا تتوقف تعاسة الأسرة التي بنيت على عدم التفاهم وعدم إدراك أهمية وخطورة الزواج على الزوجين، بل يمتد تأثير هذه الزيجة الفاشلة لكل من يحيط بهما من أبناء

---

(١) مصطفى الغلاييني: عظة الناشئين، مرجع سابق، ص ١٨٥: ١٨٦

* سبقه في ذلك الشيخ الامام محمد عبد الذي ركز على أن إصلاح الأسرة وإقامتها على أسس سليمة هما الضمان لتكوين المجتمع والأمة، لأن الأسرة هي حجر الأساس في هذا البناء الكبير، فهو يتحدث عن أن الأمة تتألف من البيوت فصلاحها صلاحها، ومن لم يكن له بيت لا تكن له أمة. عيسي مهنى: محمد عبده ومواقفه من قضايا عصره، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ٢٠١٤، ص ٥٣، ٥٤

(٢) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ١٠٥

(٣) الروم ٢١

وأقارب ومعارف. لهذا يحلل لنا الغلاييني أسباب العزوف عن الزواج وأسباب فشله حتى يتم تلافيها، كما يبين لنا كيفية اختيار الزوج الصالح، وكيف يتجنب الزوجين أسباب الخلاف:

١- أسباب العزوف عن الزواج: يحلل الغلاييني بعض أسباب العزوف عن الزواج وإثارة المشكلات فيه قبل تمامه فيحدثنا عن رغبة الشباب في تفضيل العزوبية على الزواج تخلصًا من الالتزامات التي يفرضها عليهم خاصة الالتزامات المادية فيذكر أن كثير من الشباب يفضل العزوبة على الزواج " تخلصاً من مخالب ما يلزم الزوج في هذا العصر مما لا ينطبق على أصل من أصول الاقتصاد، وتقصيًا من أن ينوء تحت ذلك العبء الثقيل، ألا وهو بذل الأموال الطائلة في سبيل مطالب الزوجة، وإن يكن أكثرها لا يجوزه عقل أو دين، أضف إلى ذلك ما يتغالى النساء به من وفرة مهور النساء، رغبة في التفاخر"[١]. ولا نعرف ما الالتزامات الاقتصادية التي كانت في عصر الغلاييني على وجه التفصيل التي تجعل الشباب يصل إلى درجة التهرب من الزواج بسبب الأعباء المادية، وإن كنا نجده يتحدث بلسان زماننا، ففي الوقت الذي زادت فيه البطالة وانخفضت مستويات الدخول، وارتفعت تكاليف الحياة، نجد أن كثير من الأسر ما زالت تبالغ وتغالي في تكاليف الزواج ومتطلباته من مسكن خاص مملوك للزوج، وذهب وهدايا وإقامة الاحتفالات المكلفة وأثاث مبالغ فيه ربما لا يستخدم معظمه، هذه الأعباء من شأنها إما تنفر الشباب من الزواج، أو تجعل من يتزوج منهم يبدأ حياته الزوجية مكبلاً بالديون الكثيرة التي تستنزف صحته ووقته وأعصابه بجانب أعباء الحياة الزوجية من الناحية المالية، مما يجعله في النهاية قنبلة موقوتة ربما تنهي الزواج في أي لحظة.

والمؤسف أن كثير من هذه المتطلبات لا تكون بسبب الاحتياج الحقيقي لها بل أن معظمها ناتج عن التقليد سواء للصديقات أو للأقارب، وتطلعات المرأة ما لدى للنساء الأخريات ورغبتها العارمة في تقليدهن والتفوق عليهن. ولا يتوقف ذلك على ما قبل الزواج بل وما بعده أيضًا، فتسعى للحصول على ما ليس لديها تقليدًا لغيرها، " ولو كان ذلك من أفعل الوسائل لإذهاب ثروة زوجها وجعله فارغ الجيب، صفر اليدين، فلا ترى زيًا من الأزياء الجديدة إلا بذلت وسعها، وصرفت مجهودها، حتى تحصل على مقصودها وتنال مرغوبها، وهكذا كلما ظهرت موضة من الموض وربما لم يمض على الموضة الأولى وقت كافي ليبلى ما خاطته على ذلك الطرز فهي تترك هذه الثياب كلها وتجعلها في زوايا الإهمال، بداعي أن هذه موضة نُسخت و زي بطل، وتجنح بميلها الغريب لأن تخيط ثيابًا على مقتضى الموضة الجديدة. وليت هذا الأمر قاصر على غنيات النساء ومن عندهن أو عند أزواجهن أو أوليائهن القناطير من الذهب والفضة، بل قد تناول الوسط من الناس فاجتاح أموالهم، وأصاب الفقراء فأنزل بها البلايا وسوء العشرة مع الأزواج"[٢]. فالأمر لم يعد قاصرًا على طبقة الأغنياء المترفين بل امتد لكل الطبقات من أعلاها إلى أدناها وأصبح مرض الشراء والتسوق من أخطر أمراض العصر

(١) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٢٣٨

(٢) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٢٣٦

على المرأة والأسرة، ولم تعد موضًا بل أصبحت مرضًا، ينخر في عظام الأسرة إن لم يلبِ الزوج طلبات زوجته حيث تحيل حياته إلى جحيم ، فإن لباها أصبح مديونًا يجلس ملومًا محسورًا، فيحدث الشقاق بين الزوجين الذي يقرب من انتهاء الحياة الزوجية بينهما.

٢- أسباب فشل الزواج: ومن أهم أسباب فشل الزواج سوء اختيار من يتم الاقتران به، سواء نتج ذلك عن طيش وتهور في الاختيار، أو عن تدخل الأهل وإجبار الفتيان أو الفتيات على الزواج ممن لا يريدون الزواج بهم، ويحلل الغلاييني أسباب شقاء الزوجين والشقاق بينهما فيرى أنها "إما أن تكون مسببًا عن كراهية أحدهما للآخر لأجل جمال الخَلق أو جمال الخُلُق. ففي الحالة الأولى يجب أن لا يقترن إلا بامرأة فيها الأوصاف التي يريدها، حتى لا يكون عدم جمالها داعيًا للنفور فيما بعد. ومعرفة جمالها يكون بالنظر إليها قبل العقد، وذلك جائز شرعًا، وقد نصت عليه الأحاديث النبوية والكتب الفقهية. وكما أن النظر للمرأة مطلوب، فالنظر للرجل مطلوب كذلك، فربما تزوجت المرأة من لا تحب، فيكون ذلك داعيًا لسوء العشرة ونكد العيش. حتى أنه يحرم على الرجل أن يحسن هيئته لترغب فيه المرأة أو أهلها، كما يحرم على المرأة ذلك"(١). أما جمال الخُلُق فلا يعرف إلا بعد الزواج عادةً، فهذا مما لا يدرك مباشرةً في فترة الخطبة وإن كان يمكن الاستدلال عليه من خلال الأسرة، فالأسرة الملتزمة بالدين والآداب عادةً ما تربي أبنائها عليه، أما جمال الخَلق فيدرك بالعين مباشرة، لهذا وجب على الأهل السماح لكلا المخطوبين بالنظر لبعضهما البعض، حتى يكون ذلك سببًا في التقارب بينهما أو القرار بعدم الزواج، ويحرم على كلا الطرفين إخفاء ما بهما من عيوب حتى يشجع الطرف الآخر على الزواج منه، والعجيب أن الغلاييني قال بذلك في عصره الذي لم تكن فيه قد انتشرت وسائل الخداع المسماة بمستحضرات التجميل وما شابهها التي تغير من خلقة الله التي خلق عليها الناس تغييرًا فتجعل من الدميمة فاتنة، حتى إذا ما تم الزواج اكتشف الزوج ما لحق به من وبال، فيكون ذلك سببًا لكراهية الحياة الزوجية وربما الطلاق. على أنه يجب أن يقتصر الأمر على النظر لمعرفة مدى وجود قبول أولي من عدمه، لا أن يستغل ذلك لاختلاط غير مقبول عقلاً ودينًا وتنازل عن القيم والعادات والتقاليد بحجة التعارف، فربما أوقع ذلك بهما في الحرام، كما أن الاختلاط في هذه المرحلة لا يفيد في شيء ذلك " لأن كلاً منهما يجتهد في إظهار أحاسن الأخلاق ومكارم الصفات ليحبب فيه، وكثير منهم ومنهن يكون بمعزل عن الأخلاق الصحيحة والضرائب الحميدة، فيكون ذلك من باب الغش والتغرير"(٢).

٣- كيفية اختيار الزوج الصالح: عند اختيار الزوج الصالح والزوجة الصالحة، فإن على الناس اتباع ما وجهنا إليه الرسول الكريم "تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر

---

(١) السابق ص ١٠٨

(٢) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ١٠٩

بذات الدين تربت يداك". فينصح الغلاييني عند اختيار الأزواج بأن "العاقل يبحث بادئ ذي بدء عن جمال الأخلاق وحسن التربية والتهذيب والتعليم وليكن ذلك هو غاية ما يسعى إليه، ثم يبحث عن الجمال الظاهري، حتى إذا فقد هذا فلا يسبب وحشةً أو نفورًا، بل يكتفي كل منهما من صاحبه بما أودعه الله فيه من الأخلاق الفاضلة والتربية الصحيحة وحسن السيرة"[1]. فالعلم والخلق والدين والتربية السليمة هي أهم الصفات التي يجب الحرص على توافرها عند اختيار من يتم الزواج منه أو بها، وذات الدين هي المسلمة المتمسكة بتعاليم الإسلام وأحكامه اعتقادًا وعملاً... والدين جماع الخير والفضائل ودعامة السعادة في الحياتين، والأسرة نواة المجتمع. وبصلاح الأسر يصلح المجتمع ويسعد، ويسلم من عوامل التحلل والشر وغوائل الفناء والدمار، وبفسادها يفسد ويشقى، ثم يتداعى ويفنى[2]. فإذا تم الزواج أصبح لكلا الزوجين حقوق على الزواج الآخر وعليه واجبات تجاهه، والمؤسف أن كليهما أصبح يتذكر ويطالب بما له وينسى ما عليه، وكثيرًا ما نجد كليهما لا يراعي في الآخر حقوقه التي فرضها الله تعالى له، فالرجل " قد هضم كثيرًا من حقوق المرأة التي أوجبها الله عليه، وجعلها آلة بيده يتصرف بها كيف يشاء. فحرمها من التربية والتعلم ومن كل ما ينهض بها من هذه الغباوة، ويرفع عنها ستار الجهل. فقد ظن أنها لم تُخلق إلا لشهوته، ولم توجد إلا ليستبد بها ويضيق عليها، غير ناظرٍ إلى أن الله سبحانه قد جعلها مساوية له في الحقوق الدنيوية والأخروية، ومقارنة له في كل شئ إلا في السلطة الشرعية التي منحه الله إياها. وهذه السلطة هي سلطة محدودة أودعها الله بيد الرجل لأنه أقوى جسمًا وأوسع عقلاً، غير أنه قد توسع في هذه السلطة وأوصلها إلى حدٍ غير معقول، فتعست بذلك حالة المرأة، وتعست حالته هو أيضًا لتعاسة حال امرأته. وذلك لأن المرأة التي يضطهدها زوجها أو من له حق الولاية عليها تنظر إليه نظر العدو الألد والأسد الكاسر"[3]. وفي وقتنا الراهن، وعلى الرغم اختفاء كثير من المشكلات التي أثارها الغلاييني مثل عدم تعليم المرأة، والإصرار على بقائها في حالة من الجهل، بعد أن ارتفعت نسبة التعليم عند الإناث بل بلغت نسبتهن في الدراسات العليا أكثر من نسبة الذكور ، إلا أن المرأة ما زالت تعاني الاضطهاد والغبن في الكثير من الحقوق لعل أبرزها التحرش بها في شتى مجالات الحياة، وتهميشها وإقصائها وعدم المساواة بينها وبين الرجل في كثير من الوظائف حتى وإن تساويا في كل شيء، بل ومنع توليها بعض الوظائف التي دار جدال فقهي وقانوني طويل حولها مثل توليها القضاء العام، أو حرمانها من حقها في الميراث في كثير من الحالات، فإن كان هناك تساهل من جانب الذكور حرمت من الميراث في العقارات ونالت ميراثها أموال فقط في استمرار لتقاليد جاهلية لم ينتصر

(١) السابق ١٠٩

(٢) السيد عبد الله بن حسين الشافعي: منهاج السعادة وصايا ونصائح إسلامية، شرح الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية الأسبق، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٦٣

(٣) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ١١١

عليها الدين حتى اليوم. وما زال الرجل يطلب من المرأة المستحيل في نطاق الأسرة فهي أم ومربية وخادمة في المنزل وعاملة خارجه وبعضهم قد يذهب به الشطط بحرمانها من حقها في التصرف والتمتع بما تكسبه من مال نتيجة عملها أو يلزمها بالإنفاق على الأسرة ما دامت تعمل ولا يكتفي بمشاركتها فقط، رغم أن الأصل الشرعي يقول إنها حتى لو قامت بالعمل أو تكسبت مالًا من أي مصدر مشروع فهو ملك خالص لها ولا تلزم بالإنفاق على الأسرة، فإن أنفقت كان ذلك تفضلاً منها ودينًا على الرجل. فإذا بالبعض يحوله الى واجب على المرأة تلام وربما تهان معنويًا وجسديًا ما لم تقم به. وليتذكر الرجال دومًا أن السبب في تعاسة المرأة هو الرجل "ولولا الرجل لكانت المرأة في أعلى درجات الكمال، لأن الله تعالى جعله مسيطرًا عليها، مراقبًا لحالها ووكل إليه أمر تهذيبها وتعليمها، وأضاف إليه تقصيرها وإهمالها"(١). وفي المقابل نجد أن بعض النساءلا تلتزمن بواجباتهن تجاه أزواجهن، فأصبحت هناك نساء تخرجن من منزلهن دون إذن أزواجهن، بل وبدون علمهم في بعض الأحيان، وتعالت الصيحات المنادية بحقوق المرأة على الطراز الغربي، فنقل البعض حقوق المرأة في الغرب وحاولوا تطبيقها في مجتمعنا الشرقي دون مراعاة لتباين السياق الثقافي والاجتماعي والإطار العقائدي بين المجتمعين، فأصبحت كلمة حق يراد بها باطل، لا تمنح المرأة حقوقها بل تتعدى بها على حقوق الزوج التي أمر الله تعالى بها النساء وأمرت بها العادات والتقاليد والأخلاق القويمة.

٤- كيف يتجنب الزوجان أسباب الخلاف: ويوضح لنا الغلاييني السبيل لتجنب أسباب الشقاق، والسعادة في الحياة الزوجية، وهو التزام الزوجين بالابتعاد عن كل ما يسبب الشقاق بينهما، وذلك بأن يكون كلاهما حليم عند غضب الآخر " وتغاضيه عن سيئة حصلت وتجاوزهِ عن كل خطأٍ يُهضم به حق واحد منهما. فإن عفا الزوج عن زلة امرأته، وأغضت الزوجة عن ذنب زوجها، تشتد بذلك أسباب الأُلفة والمودة، وتنمو عاطفة المحبة والرحمة. وبهذا يكونان سعيدين في حياتهما"(٢). ولما كان العبء الأساسي في قيادة الأسرة يقع على الرجل، لذا وجب عليه إن وجد من زوجته ما يغضبه أن ينصحها ويعظها ويرشدها لما فيه الخير باللين والمودة والعطف والإحسان والقول بالمعروف والموعظة الحسنة، فإن كانت ذات دين وتربية وخلق استجابت، وإن لم تكن كذلك اتبع باقي وسائل التأديب والتهذيب التي ينص عليها الشرع، فإن لم تستجب كان الفراق بينهما بالمعروف تطبيقًا لقوله تعالى ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾(٣). " فلا تفارقوهن لكراهة النفس، فإنها قد تكره ما هو أصلح دينًا وأكثر خيرًا، وقد تحب ما هو

(١) السابق ص ٢٣٨

(٢) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ١٠٦

(٣) القرآن الكريم: سورة البقرة، الآية ٢٥٦

بخلافه. وليكن نظرُكم إلى ما هو أصلح للدين وأدنى إلى الخير. وقال الرسول صلى الله عليه وسلم (من صبر على سوء خُلُق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه، ومن صبرت على سوءِ خلق زوجها أعطاها الله مثل ثواب آسية امرأة فرعون)*. ونختلف في ذا الصدد مع الغلاييني فكراهة النفس لا تستقيم مع استمرار الحياة الزوجية التي يفترض أنها قائمة على المودة والرحمة والتعايش الخير، كما نأخذ عليه استعانته لتأكيد رأيه بحديث ضعيف موضوع لا ينبغي على أمثاله الوقوع فيه. ويؤدي اتباع ما سبق إلى تحقيق الغاية المرجوة من الزواج- كما أراده الله- وهي إرساء دعائم المودة والرحمة، وليس كما يذهب شوبنهور إلى أن "الغرض الوحيد منه هو حفظ النوع وأنه من الوهم الزعم بأنه يمكن أن يقوم على الحب الخالص الذي يؤدي إلى السعادة الشخصية لكلا الطرفين"(١). ويجوز الطلاق بطلب من كلا الزوجين إذا استحالت الحياة الزوجية بينهما، وأصبح في استمرارها الشقاء والبغضاء، وليس السعادة للزوجين والأبناء، وذلك إذا كان هناك "اختلاف كبير في الأخلاق، أو تباين من حيث جمال الباطن أو الظاهر، فحينئذ يصعب ائتلافهما، ويتعذر أن يكونا سعيدين في حياتهما. والأولى بهما إذ ذاك أن يتفرقا إن كانا من أصحاب الشرائع التي تجيز ذلك"(٢). وبذلك يتضح لنا أن الغلاييني لا يضع أخلاقًا عملية للأسرة المسلمة فحسب، بل هو يضع أخلاق عملية للأسرة الشرقية بشكل عام، فوضح ما يكون عليه الحال إذا استحالت الحياة بين الزوجين فإن كانا مسلمين أو من الشرائع التي تجيز الطلاق أو التطليق كان هو الحل، ولكنه لم يوضح ما الحل بالنسبة لأصحاب الشرائع التي لا تجيز ذلك وبتصفح القواعد الدينية لأصحاب الشرائع في المنطقة العربية نجد أن الفئة الوحيدة التي لا طلاق لديها هم الكاثوليك، ويوجد لديهم بديل له هو الانفصال الجسماني الذي يصبح هو الحل الوحيد في هذه الحالة حين يستحكم الخلاف بين الزوجين. وعلة قيام الغلاييني بهذا التوسع في المعالجة ترجع إلى مخاطبته في المقام الأول للمجتمع اللبناني المتعدد الديانات والطوائف.

خامسًا: الأخلاق العملية للمعلم:

العلم هو الأساس لكل نهضة حضارية، ولم تقم حضارة إلا على العلم والاهتمام بتعليم الرعية، ولم تذبل حضارة وتنتهي إلا بسبب إهمال العلم حيث ينتشر الفقر والجهل والمرض، علم المسلمون الأوائل ذلك فاهتموا بالعلم تطبيقًا للقرآن والسنة فسارت الدولة الإسلامية في العصر الأموي والعباسي الأول في طريق العلم، واستمر الأمر حتى " الحروب الصليبية المشؤومة فكان من ذلك الوقت مبدأ انحطاط المسلمين بما شغلهم من الحروب والسياسة والاضطراب فهجروا العلم وتركوا التعلم، ولم يبق بينهم من العلوم إلا العلوم الدينية، بل لا أبالغ إذا قلت: أنه من ذلك الحين

* ضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، المجلد الثاني، ٦٢٧، الغلاييني السابق ص ١٠٦

(١) عبد الرحمن بدوي: شوبنهور دار القلم، بيروت، د. ت، ص ٢٥٤

(٢) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ١٠٧

ضعف العلم الديني أيضًا عندهم، عدا ما طرأ عليهم من الأهواء والآراء السخيفة في الدين التي أتاهم بها المقلدون وبعض من يزعمون التصوف وليس من أهله وروجوها باسم الدين والدين منها براء، بل إن مبادئه القويمة تناقضها كل التناقض فخسر بذلك المسلمون الدنيا والدين.... أضف إلى ما تقدم خروج التتار وتحريقهم كتب العلم وإغراقها وتخريب بلاد المسلمين وسفك الدماء البريئة"[١]. فالحروب المختلفة سواء الحروب الصليبية التي أنهكت العالم الإسلامي على مدار ثلاث قرون، أو الغزو التتري الذي قضى على الأخضر واليابس حتي توقف عند حدود مصر، فضلًا عن انشغال العرب المسلمين بالحروب المتتالية أدى إلى عدم الاهتمام بالعلم بشكل عام، فأصبح "من أعظم أسباب تأخر المسلمين الجهل، الذي يجعل فيهم من لا يميز بين الخمر والخل، فيتقبل السفسطة قضية مسلمة ولا يعرف أن يرد عليها. ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين العلم الناقص، الذي هو أشد خطرًا من الجهل البسيط، لأن الجاهل إذا قيض الله له مرشدًا عالمًا أطاعه ولم يتفلسف عليه، فأما صاحب العلم الناقص فهو لا يدري ولا يقتنع بأنه لا يدري"[٢]. ولم يبق إلا التعليم الديني الذي أصبح هو الآخر مجرد تقليد وشروح وشروح على الشروح وتعليقات وحواشي على ما أنتجه كبار العلماء في القرون الأولى. والعلوم تنقسم إلى نوعين علوم الدين وعلوم الدنيا، فعلوم الدين هي كل العلوم المتعلقة بفهم الدين ومصادر وأحكام الشريعة، والفقه وأصوله، والقران والحديث النبوي والعلوم المتعلقة بهما، والسيرة النبوية والتاريخ، وهذه العلوم الغرض الأساسي منها صالح الإنسان في الحياة الآخرة، والعلوم الدنيوية هي العلوم التي تفيد الإنسان في حياته الدنيوية من علوم طبيعية ورياضية وإنسانية وكلاهما " لازمان للإنسان ليكون سعيدًا في الدارين، وقد حث الدين عليهما معًا، فمن طلب أحدهما دون الآخر فقد قصر في الأمر الذي تركه"[٣].

آمن الغلاييني بضرورة الجمع بين التعليم الديني والدنيوي، وأهمية اختيار المعلم الصالح، وانتقاء الكتب والتدقيق في المناهج التعليمية التي يتم تعليمها للطلاب:

١- ضرورة الجمع بين العلوم الدينية والدنيوية: يذكر الغلاييني أن الناس قد انقسموا في تعاملهم مع العلوم الدينية والدنيوية إلى ثلاثة أقسام:

من يطلب العلوم الأخروية أو الدينية فقط ويهمل العلوم الدنيوية مدعيًا بجهل أن طلب العلوم الدنيوية محرم، جاهلاً بما ينص عليه دينه، غير عارف بالآيات والأحاديث التي تدل على ضرورة طلب العلم بشكل عام سواء ديني أو دنيوي، وضرورة تعلم الإنسان العلوم الدنيوية، والتأمل في حكمة خلق الله في موجوداته، وطلب الصلاح والعلاج بالعلوم الدنيوية، وهؤلاء جهلة لم يعرفوا

---

(١) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٢٤

(٢) شكيب أرسلان: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، مرجع سابق، ص ٧٥

(٣) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٢٢٩

حقيقة الدين، بل وأضروا بسمعة الدين، وهم كثيرون في أيامنا تحسبهم أحياء وهم أموات، يضعون ويطبقون الكلم في غير موضعه.

وهناك صنف آخر يطلبون علم الدنيا فقط ويهملون علوم الآخرة أو العلوم الدينية مدعين أن العلوم الدينية لا قيمة لها في الإصلاح والنهضة وأن الدين ضد المدنية، عقبة في سبيل التقدم والحرية، وهؤلاء ضلوا الطريق وما قالوا بذلك إلا لجهلهم بأصول وفروع الدين، فالدين هو مصدر الأخلاق الفاضلة والسلوكيات القويمة، ويدعونا للاهتمام بالعلم والتفكير في الكون ومخلوقات الله، والتخلي عن الدين هو في جوهره تخلي عن المدنية الحقة وعن الخلق القويم. فالابتعاد عن السلوكيات الخاطئة والغرق في الرذيلة لا يحدث إلا لأن الإنسان يدرك أنه حتى لو أخطأ في الدنيا ولم يعاقب فإنه سيعاقب في الآخرة، والمنادين بهذا الاتجاه نجدهم عادةً قد غرقوا في الشهوات والمنكرات وبعضهم يسلك هذا الاتجاه حتى يمارسها دون رادع أمام الجميع، بل وبعضهم يجاهر بها غير مبالين بانتقاد الأشخاص والمجتمع، ومن لا يفعل ذلك منهم إنما يمتنع لأنه ما زالت به بقايا دين مترسخة في وجدانه وإن لم يستشعرها.

وهناك صنف آخر متمثل في العلماء الأولين، الذين كانوا يعلمون علم اليقين، أنهم بحاجة إلى كلا العلمين، ومدى حاجة الأمة إلى علوم الدنيا وكذلك علوم الدين، فبرعوا في كلا العلمين فكان ابن سينا طبيبًا ت ٩٨٠ م، وابن باجة طبيبًا عالمًا بالعلوم الطبيعية والرياضيات والموسيقى ت ١١٣٨، وابن رشد فقيهًا وقاضيًا درس الطب والفلسفة والرياضيات ت ١١٩٨، وبعد هؤلاء العلماء السابقون، أصحاب التسامح والرأي الراجح، جاء من بعدهم " خلف لم يدركوا شأنهم، فظنوا أن الدين قاصر على مباحث معلومة وفصول مشهورة، وأنه لا يجوز لأحد أن يتعلم سواها، بدعوى أنها هي الدين كله، إلا ما يفترون"(١)، فجمدوا العقول ومنعوا الابتكار والإبداع، وظنوا أنهم رواد الجهاد بإغلاقهم للاجتهاد، وهو ما زالت تعاني منه الأمة، وندعو الله أن تزول هذه الغمة. لذا فالعلم عند الغلاييني هو العلم العام الذي يشمل كل العلوم بشرط أن يستفيد منها الإنسان سواء في حياته الدنيوية أو الدينية. حيث يرى الغلاييني أن كل العلوم هي علوم الدين "لأن علوم الدين الحقيقية هي كل ما يعين على فهم الكتاب والسنة فيدخل في ذلك علوم اللسان والأخلاق والسياسات بفروعها والطب والطبيعيات والجغرافيا والفلك وجميع ما يسمونه اليوم بالعلوم الكونية أو العصرية، فجميعها من علوم الدين لأن آيات القرآن والسنة أشارت إلى كثير منها أو صرحت به، وليس الدين قاصرًا على ما يزعم البعض من العبادات والمعاملات"(٢). ويختلف الغلاييني بذلك مع القابسي ت ١٠١٢م

(١) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٢٣٠

(٢) مصطفى الغلاييني: الإسلام روح المدنية أو الدين الإسلامي واللورد كرومر، بيروت، حقوق الطبع للمؤلف، ١٩٠٨، ص ٤٨

الذي كانت غاية التعليم عنده هو التعلم الديني فقط(١). ويتفق مع النورسي ت ١٩٦٠م الذي يرى أن " سعادتنا الدنيوية ستحصل من جهة بالعلوم الحديثة الحاضرة، وأن أحد الروافد غير الآسنة لتلك العلوم سيكون العلماء، والمنبع الآخر سيكون حتمًا المدارس الدينية، كي يأنس علماء الدين بالعلوم الحديثة"(٢).

وعلى الرغم من إيمان الغلاييني بأهمية العلوم كافة واحتياج المجتمع إليها دون استثناء، إلا أنه يؤكد على "حاجتها إلى أطباء الاجتماع، وحكماء الأخلاق، أكثر من حاجتها إلى من يداوي أجسامها. إن مرضت الأمة مرضًا وبيلاً فتاكًا، فذلك لا يقضي إلا على حياة عشرة في الألف من مجموعها، ثم يكون الداء دواء. وإن مرضت مرضًا اجتماعيًا قضى مرضها على تسعة وتسعين في المائة. ولا يمكن لشعب من الشعوب أن ينهض، إلا إذا كان بين ظهرانيه من يداوي أخلاقه، ويدفعه إلى الترقي، ويهيج منه عاطفة التنبه، ويثير فيه كامن المعالي. وبقدر ما يكون لديه من هؤلاء المداوين يكون مقدار تنبهه أو خموله"(٣). وهنا تبرز رجاحة عقل الغلاييني واهتمامه ببناء الأمة واستقرارها وازدهارها، فالأمراض الجسدية بل والأوبئة إن حدثت لا تقضي على الأمة، بل تصيب بعض أفرادها فيمكن علاجهم في وقت قصير بالدواء المناسب، أما انهيار القيم والأخلاق فيقضي على الأمة ويحل الحرام ويحرم الحلال، فتنهار الأمة وإن لم تسارع بإنقاذ نفسها ربما كان هلاكها واختفاءها كما اختفت كثير من الحضارات السابقة. ومن هنا كانت الحاجة الماسة لعلماء الاجتماع وحكماء الأخلاق، لتنبيه الأمة إلى ما بها من عطب وخمول، وتقديم كل الممكن من الحلول. غير أن التعليم يقوم على اختيار المعلمين الصالحين والمناهج والكتب المفيدة للمتعلمين.

٢- ضرورة اختيار المعلمين الصالحين: يذهب الغلاييني إلى أن إصلاح حال التعليم لن يتحقق إلا بإصلاح حال القائمين عليه من المعلمين المربين وحسن اختيارهم، فالمعلم الصالح ينشئ جيلًا صالحًا. لهذا نجد أن علي مبارك- أبو التعليم- لم يكن " رائد حركة التعليم فحسب، بل كان هو نفسه

(١) د أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام أو التعليم في رأي القابسي، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥، ص ٨٨

(٢) بديع الزمان سعيد النورسي: المحكمة العسكرية العرفية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ١٩٠٨، منشور ضمن كليات رسائل النور، ج ٨ صيقل الإسلام أو اثار سعيد القديم، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٢، ص ٤٥٠

(٣) مصطفي الغلاييني: عظة الناشئين، مرجع سابق، ص ٥٠

معلمًا، استشف تجربته في التربية من واقع حياته ومن إيمانه بأن المعلم الصالح ينشئ جيلاً صالحًا ويبني أمة ناهضة"[١].

لذا يضع الغلاييني شروط اختيار المعلم الصالح وهي أن يكون "ثقة معروف بآدابه وأخلاقه، لأن التلاميذ أمانة بين يديه. وذلك بأن لا يكون المربي أحمق، أنانيًا، وسخ الذيل. بل يكون طاهر السيرة والسريرة وقورًا، محبًا للنفع، وأن يكون من أصحاب الدين والوجدان... متبعًا للحق، محبًا للخير والسلام، ذا وجدان صحيح، وأخلاق فاضلة، وعواطف شريفة، يسير بتلاميذه نحو ما يعود عليهم بالسلامة والنجاح"[٢]. فالمعلم يجب أن يكون حسن الظاهر والباطن، يجمع بين التدين والعلم، رحيم بتلاميذه، عطوف عليهم، قوي الشكيمة معهم، يعلمهم العلم الدنيوي ولا يغفل العلم الديني، وقورًا حتى يحترمه تلاميذه وأولياء أمورهم، مفيدًا لغيره فخير الناس أنفعهم للناس، وخير المعلمين هو من كان خير المربين، من ينفع تلاميذه بعلمه وخلقه، يعلمهم العلم ويلقنهم إياه ويرتقي بروحهم بسلوكه وتعاليمه، ولن يحدث ذلك ما لم يقم علاقة قوية مع تلاميذه، علاقة متوازنة لا تخل بهيبته في نفوسهم، ولا تقصيه من أرواحهم، يشعر التلاميذ بمحبته وهيبته، لا بالاستهانة به أو الخوف منه، فيخرج كل طاقاتهم وقدراتهم، وهو يقترب هنا مما اشترطه الإمام الغزالي في المعلم حيث اشترط فيه أن لا يطلب الدنيا بعلمه، ويكون خاشعًا زاهدًا، لا يخالف قوله فعله، يعتني بتحصيل العلم النافع في الآخرة، لا يميل إلى الترف في المطعم والمشرب والتنعم في الملابس، مبتعدًا عن السلاطين قدر ما استطاع حتى لا يضطر لإرضائهم على حساب علمه ودينه أو تضيق صدورهم بكلمة الحق منه فيناله شرهم، ولا يكون مسارعًا للفتوى بل متوقفًا ومحترزًا ما وجد إلى ذلك سبيلاً[٣]. وكذلك مما ذهب إليه الآجري ت ٩٥٠م الذي اشترط في المعلم التواضع وعدم طلب المنزلة عند الملوك بعلمه، وأن يكون صبورًا مع تلاميذه مؤدبًا لهم قبل أن يكون معلمًا، لا يجادل ولا يغالب بالعلم إلا من يستحق أن يغلبه بالعلم الشافي، مبتعدًا عن الجدال وأصحابه[٤]. أي أن تكون "شخصية المعلم الخلقية مستمدة إلى حد كبير من شخصيته الدينية لأن من يحفظ القرآن ويقيم شعائر الدين أقرب من غيره

---

(١) د حسين فوزي النجار: على مبارك أبو التعليم، سلسلة أعلام العرب، العدد ٧١، وزارة الثقافة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧، ص ٢١

(٢) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٤٥

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين، دار الشعب، دون تاريخ، ج١، ص ١٠١ إلى ١١٧

(٤) أبي بكر محمد بن الحسين الآجري: أخلاق العلماء، رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، ١٩٧٨، ص ٥١، ٥٢، ٥٦، ٥٧

إلى العمل الصالح"(١) كما ذهب القابسي. حيث يشترط في المعلم أن يكون رفيقًا بتلاميذه، يحسن القيام بأمورهم وتقديم الرعاية لهم، يعدل بينهم في التعليم ولا يفضل بعضهم على بعض (٢).

٣- ضرورة اختيار الكتب المفيدة للمتعلمين: ينبه الغلاييني إلى أمر شديد الأهمية هو ضرورة اختيار الكتب التي يتم التدريس للتلاميذ منها، فالعلماء المتقدمون كانت كتبهم رغم ما بها من علم غزير، وشرح وفير، ذات لغة خالية من التعقيد، ذلك أنهم امتلكوا العلم بحق فكان همهم نشره وتعليمه لمن لا يعلمه، أما المتأخرون ممن لا يملكون علمًا ولا يوجد لديهم فكرًا، فإنهم عوضوا ذلك الخواء بأن اعتمدوا على الشروح على الشروح، واختيار غامض الألفاظ والمهجور، ليس لصعوبة ما يكتبونه بل للإيحاء بقدراتهم وما هي في الحقيقة إلا قدرات لغوية لا تعود على المتلقي إلا بالتنفير من العلم، فضررها أكبر من فائدتها، لهذا ينصح الغلاييني من يريد تعليم التلاميذ بأن " يقصد التآليف القديمة لأنها أسهل موردًا وأغزر مادةً مع خلوها من التعقيد وبعدها عن المشاغبات اللفظية وليترك هذه الكتب الحديثة للمنقطعين لفهمها بدون ملل ولا حساب للوقت"(٣). فالمعلم الجيد هو الذي يحسن اختيار الكتب التي يعلمها لطلابه، أما إن كانت هذه الكتب مجبرًا عليها فإن " المعلم الجيد يستطيع أن يجبر ما في المنهج من قصور، والمعلم السيئ يستطيع أن يئد كل مبادرات النجاح ويحطم كل بوارق الإنجاز ويطفئ كل شموع الأمل"(٤).

سادسًا: الأخلاق العملية للحاكم

الحاكم هو الراعي المسئول عن الرعية وإدارة شؤون الدولة "خليفة الأمة، يحسن سياستها، ويدبر أعمالها، ويدير دولاب حياتها الاجتماعية والعمرانية. وعامر الأرض يسعى لرفاهية سكانها وخادميها، ويهيئ لهم الأسباب التي تدعوهم لعمارتها، ويقدم لهم كل ما يحتاجون إليه لصلاح تلك الأرض"(٥)، فهو المسؤول عن كل شؤون الدولة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأمنية ونشر العدل والمساواة ومعاقبة المخالفين والفاسدين، وأن يكون قدوة للمحكومين، والحكم خلافة وأمانة

---

(١) د أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام أو التعليم في رأي القابسي، مرجع سابق، ص ١٩٧، ١٩٨

(٢) أبو الحسن علي القابسي: الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، تحقق أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، ط١، ١٩٨٦، ص ١١١، ١٢٨، ١٣١

(٣) مصطفى الغلاييني: الإسلام روح المدنية أو الدين الإسلامي واللورد كرومر، مرجع سابق، ص ٣٥

(٤) د رشدي احمد طعيمة: الجودة الشاملة في التعليم، الأردن، دار المسيرة، ط١، ٢٠٠٦، ص ١٢

(٥) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٢٤

ووديعة، فهي خلافة لله في الأرض، وأمانة يتولاها الحاكم وعليه أداؤها على الوجه الأكمل، ووديعة استودع الله الحاكم عليه وعليه التصرف فيها وفق ما أمنه المودع، لا على ما يريده هواه"(١).

والحكم والرئاسة والزعامة أمر طبيعي مفطور في كل المخلوقات فقد قصت سنة الله " أن يكون في كل نوع من المخلوقات رئيس ومرؤوس، وسائس ومسوس، كيلا تتفرق الآراء، وتتشعب الأهواء، فيكون من ذلك تشتت الشمل، وتوهن الحبل، وافتراق الجماعة، وشق عصا الألفة. إذا كانت الروح قوام الجسم، فالرؤساء في كل أمة هم روح اجتماعها. فإن فسدوا فسدت، وإن صلحوا صلحت"(٢). فبدون رئيس تتشتت الآراء، وتتنازع الأهواء، وتسود الفوضى ويسيطر الدهماء، ووجود الحاكم يجمع الشمل، ويوحد الجماعة، ويقوي النظام، ويوجه الأمة لما فيه الخير والنماء. ولأهمية الدور الذي يلعبه الحاكم في الدولة فقد حدد الغلاييني الشروط الواجب توافرها في الرئيس، والصعوبات التي يواجهها ممن لا يريدون للأمة الخير، وأسباب جمود الأمة وتخلفها وكذلك نهضتها، وكيف يختار الحاكم حكومته والشروط الواجب توافرها في المسئولين:

١- الشروط الواجب توافرها في الرئيس: يضع الغلاييني الشروط الواجب توافرها في الرئيس، وبدونها لا يكون صالحًا لها، حيث يجب أن " تتوفر فيه شروط الرئاسة من العقل والعلم، وصحة الوجدان، والمروءة، والشهامة، وطهارة السريرة، وحسن السيرة، والكرم، والبذل الجم في سبيل إحياء الأمة ونشر العلم في ربوعها... معروف الفضيلة آبي الرذيلة، زكي الوجدان، ثابت الجنان، عالي الهمة، نقي الذمة، ذكي الفؤاد، رفيع العماد، ترابي النفس عصاميها، واضح الأخلاق، طاهر الأعراق، عالم بما تحتاج إليه الأمة، ساع نحو ما يفيدها ويعلي شأنها"(٣). فالرئيس يجب أن تتوافر فيه شروط عدة منها:

١- العقل والعلم: فلا يجوز أن يتولى الأمة ضعيف العقل، أو من ليس لديه القدرة على التفكير السليم، كذلك يجب أن يكون عالمًا، ولم يحدد الغلاييني هنا نوع العلم المطلوب في الحاكم، وبالتالي فالأقرب للصواب أن العلم المطلوب ليس العلم المتخصص، وإنما العلم العام بالعلوم، وذلك حتى يكون لديه سعة أفق وقدرة على اتخاذ القرار وتقبل التفاصيل من العلماء المتخصصين، وإدراك قيمة العلم والعلماء فينالوا منه التقدير والتكريم.

٢- التمتع بمكارم الأخلاق: فيجب أن يتمتع الحاكم بالمروءة والشهامة وحسن السيرة والكرم، مبتعدًا عن الرذيلة، عالى الهمة، واضح الأخلاق، ليس في نسبه ما يشوبه، دون اشتراط أن ينتمي لنسب معين خلاف ما كان يذهب إليه البعض من اشتراط النسب القرشي، وهذا أمر مفهوم في ضوء

(١) د محمد عبد الرحمن مرحبا: المرجع في تاريخ الأخلاق، جروس برس، لبنان، ج١، ط١، ١٩٨٨، ص ١٦٤.

(٢) مصطفى الغلاييني: عظة الناشين، مرجع سابق، ص ١٠٠

(٣)السابق ص ١٠١، ١٠٦

الظروف التاريخية للغلاييني واختلاف الظروف عما كانت عليه وقتما كان الفقهاء والمفكرين يشترطون هذا الشرط.

٣- معرفة ما تحتاجه الأمة: حيث يمكن أن يكون الشخص عاقلاً عالمًا، متمتعًا بمكارم الأخلاق، وبالرغم من ذلك يكون غير ملمًا بما تحتاجه الأمة، لا يعرف إمكانياتها ولا احتياجاتها، وبهذا لا يصلح حاكمًا، فالحاكم يجب أن يعرف ما تحتاج إليه الأمة، ويسعى نحو تحقيق ما يفيدها ويعلي شأنها.

٤- إدراك قيمة العلم والعلماء: فالعلم هو السبيل الوحيد لنهضة الأمة ورقيها وتقدمها، لذا يجب على الحاكم أن يبذل كل الجهد في سبيل إحياء الأمة من سباتها، والتقدم بها بين الأمم، والسبيل لذلك هو نشر العلم في ربوع الأمة، ولا يتحقق ذلك إلا بالاهتمام بالعلم والعلماء، ونشر العلم في كل الأرجاء، وتوفير كل السبل لمساعدة وتشجيع العلماء.

فإذا كان الحاكم قد وصل للحكم بعد انقلاب أو ثورة فعليه الحذر مما يعقب الانقلابات والثورات، ذلك أن " كل انقلاب في العالم يعقبه اختلال في الأحكام، وفوضى في الأعمال، واضطراب في حركة العمال، وقحط الرجال العاملين. غير أن الاختلال له أجل معلوم والارتباك لا بدَّ أن ينتهي عند حد. والآجل يطول أو يقصر بنسبة أهمية الانقلاب أو عدمها"(١). فبعد الثورات والانقلابات تسود حالة من الفوضى والاضطراب والأعطال، ويكون العمل عشوائيًا ويسود الخوف والخيانة ويظهر العملاء في صورة الأبطال، ويزيد الكلام والشائعات ويقل العمل ويندر الرجال العاملين، الذين هم لوطنهم ودينهم مخلصون، غير أن هذا الاختلال والاضطراب لابد في النهاية أن ينتهي، وتتوقف مدة استمراره على أهمية الانقلاب أو الثورة ومدى ما أحدثته من تغييرات في بنية المجتمع بالكامل.

يحذرنا الغلاييني من أنه بعد أن يتولى الأمة من يصلح لها، ويقودها إلى ما فيه خيرها، فإن هناك البعض ممن كانوا يسعون إلى الرئاسة لمصالحهم الخاصة، لا يكتفون حين يفشلون في توليها، فيسعون إلى تخريبها على من تولاها، حتى لو كان في ذلك خراب الأمة، فيقومون ضده باسم الدين " وهم أجحد الجاحدين، فينسبون إلى غيرهم الكفر والإلحاد، والضلال والفساد، متخذين لأهوائهم الضالة سافل الوسائل، ليصرفوا الأمة عن ذلك الزعيم العامل، ويصرفوا وجوهها عنهم، ويجعلون بين يديه، وربما صدقه بعض السذج من العامة، لأنهم يضربون على وتر الدين. ولكن المجموع لا يلتفت إليهم، ولا يعول عليهم، ولا يعبأون بترهاتهم، ولا يجنحون إلى مفترياتهم"(٢). فالغلاييني هنا لا يرفض وجود معارضة حقيقية، هدفها النقد وليس النقض، يريدون الإصلاح ومساعدة الحاكم لما فيه خير الأمة، بل يبين لنا خطورة وجود هذه الفئة التي فشلت في الوصول

(١) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر،مرجع سابق، ص ٢٧

(٢) مصطفى الغلاييني: عظة الناشئين، مرجع سابق، ص ١٠٧

للحكم، فيصبح كل همها تشويه سمعة من تولاه، مدعين الدين وهم أبعد ما يكونون عنه، ينسبون لمن يخالفهم وعلى رأسهم الحاكم الكفر والإلحاد، والضلال والفساد، مشككين في نسبه وخلقه، وفي صحة قراراته وأحكامه، التي لو كانوا هم من تولوا الحكم ما كانوا فعلوا إلا ما هو أسوأ منه، ولأنهم يعلمون أن شعوبنا مهما عم فيها الفساد والانحلال، فإن أقرب طريق إليهم هو الدين، فإنهم يلعبون على هذا الوتر مدعين أنهم أهل الدين، وأن من خالفهم وعلى رأسهم الحاكم هم الكافرين الضالين المُضلين، لينفروا الأمة من الزعيم العامل الذي يسعى لصالح الأمة، ويقوم بالإصلاح الحقيقي حتى وإن أدى ذلك لجراحات حقيقية لاستئصال أورام الجهل والفساد والضعف والتخلف التي لحقت بها، وهي جراحات أليمة يتضرر منها الأغلبية، لكن بدونها ستنهار الأمة وتنتهي وربما وقعت تحت الاحتلال أو تفرق أهلها وصاروا شِيَعًا وانتشر بينهم السلب والنهب والقتل دون فرية، وربما انخدع البسطاء والسذج والدهماء بكلامهم وخداعهم، لكن الأغلبية لا تلتفت إليهم ولا تجعل لما يقولونه وزنًا، ولا يعبئون بما يروجونه.

٢- أسباب جمود الأمة وتخلفها وكيفية النهوض بها: يضع الغلاييني خارطة طريق للحكام يعرفون بها أسباب خمول وتدهور الأمة ليعالجونها ويتجنبونها، والأسباب التي تجعل الأمة متقدمة فيعملون بها ويلتمسونها. فأسباب تدهور الأمة كثيرة يأتي في مقدمتها " جمود كثير من علماء الأديان ووقوفهم سدًا منيعًا أمام تيار الأمة المندفعة إلى التقدم، لتكون من كبريات الأمم الحية، ومنهم من يتخذون الدين وسيلة لمآربهم وشركا يصطادون به عقول العامة، ليرجعوهم عن نصرة المصلحين، ومتابعة علماء الكون والاجتماع، فيُكَفِرون ويفسقون، ويحللون ويحرمون، وربما دماء الأبرياء يبيحون، وما ذلك إلا نتيجة من نتائج جهلهم أو غرورهم أو ضعف أخلاقهم، لو كانوا يعلمون. ومنها استبداد الرؤساء وأرباب النفوذ، وظلم الحكام واضطهادهم، من يريد أن ينهض بالأمة من دركات السفالة، وهوى الجهل، وأخاديد الخمول إلى مستوى الفضيلة والعلم والتنبه"(١). وهنا يحدد الغلاييني أسباب جمود الأمة وتخلفها ومن وراء ذلك ويرصد أهمهم في صنفين:

الأول: رجال الدين الذين يرى الغلاييني أنهم قد توقفوا عند مرحلة التقليد، ولم يعد لديهم جديد، وتوقفوا عن التفكير وأغلقوا باب الجهاد، وضيقوا على العباد، وأصبح لا علم لهم إلا النقل من السلف الذين ما وضع فتاويهم وأفكارهم إلا في زمانهم وفق ظروفه ومشاكله واحتياجاته ولو كانوا في زماننا لتغيرت فتاويهم كما غير الشافعي فتاويه وآراءه حين انتقل من بغداد إلى مصر فإذا بهؤلاء يغلقون كل باب للتجديد، ويواجهون كل من يسعى إليه بالتهديد والوعيد، ومنهم من لا يبتغي وجه الله ولا مصلحة الدين، بل يتخذ الدين مطية لتحقيق مطامعه وأهدافه الدنيوية، مستخدمين الدين للسيطرة على العامة، ليبعدوهم عما فيه خيرهم، وعن نصرة المصلحين المجددين، والعلماء أصحاب علم الدنيا والدين، بل يصل بهم الأمر لتكفيرهم وتحليل دماءهم، ويحللون ويحرمون، ويمنحون

---

(١) مصطفى الغلاييني: عظة الناشئين، مرجع سابق، ص ٤٤: ٤٥

ويمنعون، وكل ذلك من أجل تحقيق أهدافهم وأغراضهم الدنية، التي تدفعهم لها عقولهم الغبية. وأخلاقهم المتدنية.

الثاني: الحكام المستبدون وأصحاب النفوذ والسلطة، على اختلاف مستوياتهم وتغير مكانتهم، ممن لا يوجد لديهم خطط أو تفكير لإصلاح حال الأمة، ومن عجزوا عن الارتقاء بحال الوطن والمواطنين، فاستبدلوا بذلك الاستبداد والطغيان، والجور على كل من يريد النهوض بالأمة من الهوة السحيقة التي وصلت إليها في العلم والأخلاق والتربية، فأغلقوا بذلك كل سبل للتطور والانتقال من الجهل والخمول والأخلاق الدنية إلى العلم والفضيلة والأخلاق العليا. ويصل الأمر عند الكواكبي لاعتبار الحكام المستبدين ممن لا تجوز شهادتهم فقد " عدد الفقهاء من لا تقبل شهادتهم لسقوط عدالتهم، فذكروا حتى من يأكل ماشيًا في الأسواق، ولكن شيطان الاستبداد أنساهم أن يفسقوا الأمراء الظالمين فيردوا شهادتهم"[(١)]. ويتفق شكيب أرسلان مع الغلاييني في أن الحكام الفاسدين من أهم أسباب تخلف الأمة وتأخرها وبطشهم بمعارضيهم ممن يريدون الإصلاح "فمن اكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم بنوع خاص، وظن هؤلاء إلا من رحم ربك أن الأمة خلقت لهم أن يفعلوا بها ما يشاؤون، وقد رسخ فيهم هذا الفكر حتى إذا حاول محاول أن يقيمهم على الجادة بطشوا به عبرة لغيره"[(٢)].

ولا يكتفي الغلاييني بشرح أهم أسباب تخلف الأمة، بل يوضح لنا الأسباب التي تجعل الأمم متقدمة لنأخذ بها وهذه الأسباب كثيرة منها "تبوغ أفراد في الأمة، يؤلمهم بقاء أمتهم في الجهل والخمول والسقوط فيبثون في الأمة روح الهمة والنفرة مما يضربها ويوقدون فيها نار العزيمة والاستعداد لمعالي الأمور، حتى إذا تهيأ لهم ما يريدون، حملوا الحكومة ورجال الاستبداد بالأمر من العظماء والرؤساء وأرباب النفوذ على تغيير الحالة الاجتماعية الفاسدة، واستبدال غيرها بها... وتبقي عقبة جهل الأمة أشد وطأة من ظلم الحكومة، وإن خمولها عقبة كؤود في سبيل جعلها أمةً حيةً يشار إليها بالبنان. وهذه العقبة أشد اعتراضًا من عقبات المستبدين، ورجال الدين الجامدين"[(٣)]. وكما وضع الغلاييني في مقدمة أسباب تأخر الأمة رجال الدين الفاسدين الجامدين، والحكام المستبدين فقد جعل في مقدمة أسباب نهضتها العلماء المجتهدين، محددًا أهم أسباب النهضة في أمرين:

الأول: وجود بعض الأفراد النابغين في الأمة، لم يحدد صفتهم أو علمهم وبالتالي يفترض أنهم من العلماء في كل مجال والمعلمين والسياسيين ورجال الدين والإعلاميين المخلصين، ممن يؤلمهم انهيار أمتهم وحالها وسقوطها في براثن الجهل والفقر والمرض، فيبثون في الأمة روحًا جديدة

(١) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، مرجع سابق، ص ٣٦

(٢) شكيب أرسلان: مرجع سابق، ص ٧٦.

(٣) مصطفى الغلاييني: عظة الناشئين، مرجع سابق، ص ٤٦: ٤٨

تسعي للرقي والارتقاء بين الأمم، شاحذين الهمم بين الشعوب، فإذا تحقق لهم ما أرادوا أجبروا المسئولين المستبدين وأصحاب السلطة النافذين على تغيير التركيبة الاجتماعية للمجتمع وإصلاحه من أجل الارتقاء به في كافة المجالات.

الثاني: القضاء على الجهل، وهو العقبة الأشد والأوسع تأثيرًا، والمقصود بالجهل هنا هو الجهل العام، الجهل بالعلم والدين، الجهل بحقوق وواجبات المواطنين، الجهل بأهمية العلم ودوره في التقدم بين الأمم، الجهل بأهمية العلماء ودورهم في بعث وتقدم الوطن. فمن أراد من الحكام التقدم بأمته والارتقاء بها عليه القضاء على مسببات التأخر، والعمل بقواعد التقدم، ووقتها سيستقر حكمه، وتتقدم دولته.

٣- كيفية اختيار الحكومة والشروط الواجب توافرها في المسؤولين: بعد أن يستقر الأمر للحاكم يكون عليه أن يختار حكومته وتشكيلها، ويعدد لنا الغلاييني أنواع الحكومات "فمنها المطلقة ومنها المقيدة، وأكثر الحكومات المطلقة مستبدة قلما يرجى منها خير، لأنها تكون تابعة لرأي واحد، والرأي المفرد كثير الخطأ إن لم يعزز بالشورى. لهذا كانت الحكومات المفيدة التي لا تعمل إلا برأي الأمة ومشورتها أكثر نجاحًا وأسلم عاقبةً"(١). فالحكومات المطلقة حكومات مستبدة ذات سلطات واسعة لا حدود لها، حكومات الفرد الواحد والرأي الواحد، ومهما كان صاحب الرأي الواحد عادلاً حكيمًا فإن الرأي الواحد في النهاية يخطئ ويصيب، وحين يخطئ لا يجد من يرده عن خطئه، بل يظهر له مؤيدين إما طامعين أو خائفين، فيستمر في خطئه وفي النهاية يتحول إلى الاستبداد المطلق ويضع بدايات نهاياته. وقد حاول الغلاييني التخفيف من وطأة هذه الحكومات الفردية فقال أن أخطائها تقل بتعزيزها بالشورى، غير أن الحكم القائم على الشورى ليس حكمًا فرديًا ومن هنا كان التناقض لدى الغلاييني ولعل مبرره فى هذا هو سعيه في هذه الفترة إلى تأييد السلطان العثماني الذي تحول الحكم على يديه من الناحية الظاهرية من الحكم الفردي إلى استحداث البرلمان. لكن في الحقيقة فإن الحكومة الأفضل هي الحكومة المقيدة التي لا تعمل إلا برأي الأمة وهي إما أن تكون حكومة منتخبة من الأمة، أو يمكن للأمة حسابها سواء بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر، وتحت وطأة هذه الرقابة من الأمة فإن الحكومة المطلقة تكون أكثر نجاحًا، وأكثر فائدة للمجتمع.

أما كيف يتم اختيار المسئولين في الدولة فهؤلاء ممن يجب توافر عدة شروط فيهم منها:

١- الاستعداد للقيام بواجباتهم على النحو الأكمل تجاه الأمة.

٢- أن يكونوا من أهل العقل والدراية، وهما ضروريان حتي يمكنهم اتخاذ القرارات الصحيحة وتجنب الوقوع فيما يضر البلاد والعباد.

٣- التمتع بالأخلاق الفاضلة والوجدان الصحيحة: فعلم ومعرفة دون أخلاق وتربية صحيحة يضل صاحبه ويبعده عن طريق الصواب.

---

(١) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ١٤٤

وإذا كان الناس يشكون من قلة أو ندرة الرجال الصالحين الأكفاء العاقلين، فإن الحق هو أن الأندر هو الرجال أصحاب الأخلاق الفاضلة ذوي التربية، وهذا الأمر ليس قاصرًا على المسئولين ومن يختارونهم من أهل الحل والعقد بل هو أمر عم وشمل الجميع إلا القلة التي ما زالت قابضة على خلقها ودينها كالقابض على الجمر، ومع ذلك يدعي الجميع أنهم يحافظون على الحق وأنهم نموذج الدين الصحيح(١). وهنا لا يعفي الغلاييني الأمة من المسؤولية عن حال الحاكم والحكومة فكيفما تكونوا يولى عليكم لهذا فإن أرادت الأمة "أن تكون لها حكومة صالحة راقية، فعليها أن تصلح هي أولاً، وتنهض للأخذ بأسباب الترقي والفلاح حتي إذا ما صلحت وترقت، ترقت معها الحكومة، لان الجزء تابع للكل، ولأن الحكومة هي صورة الأمة ومرآتها. فإن كانت الأمة صالحة فهي صالحة والعكس بالعكس"(٢). فالأمة المتعلمة الحرة الساعية إلى التقدم تختار حكومة صالحة وتحاسبها فتعمل الحكومة لصالح الأمة وتخشى حسابها، كما أن أفراد الحكومة يكونون من الأمة، فإن كانت الأمة صالحة كانوا صالحين. فالعلاقة بين الحكومة والأمة ليست أحادية التأثير، بل علاقة تبادلية قائمة على التأثير والتأثر.

ويجب أن يعي الحاكم أن العبرة ليست بكثرة القوانين وبراعة صياغتها، فالقوانين لا تجعل سلوكيات الناس فاضلة ولا تجعلهم أحرارًا ولا تغير سلوكياتهم، فمن يقم بالسلوك الخير ويتبع الفضيلة خوفًا من القوانين بمجرد أن يضمن أنه بعيدٌ عن عباءة القانون يرتكب كل الموبقات، فمثل هذا النموذج تتحكم به عوامل الخوف وليس ثقافة الالتزام. كذلك يجب أن يكون القائمون على تنفيذ القوانين من المؤتمنين أصحاب الصدق والعدل اليقين. كما أننا إذا ما وضعنا أفضل القوانين ولم تكن نفوس الناس مهيأة لها بادروا لمخالفتها ولم يطيعوها "إذ أية فائدة من القوانين أن لم تكن نفوس الشعب مستعدة لما تحويه من الأصول والمواد، بل أي نفع من النظامات إذا لم يوجد لها حاكم أمين ينفذها بكل صدق واستقامة، فالقوانين لا تجعل الخامل ذكيًا ولا الكسول مجتهدًا ولا فاسد الأخلاق طاهرًا كاملاً، والأنظمة لا تمحو الجرائم، ولا تردع الناس عن المنكرات، ولا تخفف عنهم الويلات، ولا تجعلهم سعداء، إلا إذا أتيح لها حكام أمناء. قال عثمان بن عفان رضي الله عنه "يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"* وما للقوانين من فائدة عملية سوى أنها تكون بمثابة المرشد للشعب والدليل للحاكم يستعين به على إجراء العدل والحكم بالحق"(٣) . فالقوانين ليست هي السبب الأوحد

(١) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٢٧

(٢) مصطفى الغلاييني: عظة الناشئين، مرجع سابق، ص ٥٦

* وينسب هذا القول لعمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب رضوان الله عليهما، ولم يثبت صحة نسبته إلى أي منهما.

(٣) مصطفى الغلاييني: أريج الزهور، مرجع سابق، ص ١٦٠

لتقدم الأمم، بل هي أحد أسباب التقدم، ودليل على استعدادها للترقي والتقدم، فإن طبقت القوانين بالعدل والاستقامة والحسم والحزم على الجميع، كان القانون سببًا لتقدم الأمة ورقيها، وانتشار العدل والنظام بها "فنحن إذا في حاجة كبرى قبل القوانين إلى تعليم الأمة لتخرج لنا رجالاً أكفاء للأعمال، قادرين على قيد زمام الأمة والحكم في أموالها ودمائها، وإلا فإن الحرية وما أتت به من القوانين لا تجدي نفعاً ولا تغني قليلاً"(١). وقبل سن القوانين نحن في حاجة إلى التعليم والعلم لنخرج رجالاً يعرفون معني وقيمة الأخلاق والتربية وأهمية وضرورة الالتزام بالقوانين وطاعتها، وأن يضع المقننين القوانين وفق احتياجات المجتمع وظروفه وإمكانياته، وإلا لن يكون للقوانين قيمة.

سابعًا: أخلاق النقد والإصلاح

النقد من أجل الإصلاح فعل يقوم به كل وطني عاقل يسعى لنهضة أمته وتقدمها، النقد وليس النقض هو الهدف الأسمى لمن يريد الأفضل دومًا، البحث والتنقيب عن الحقيقة هو مسعى العلماء والمفكرين والفلاسفة، الانتقاد البناء يظهر العيوب والأخطاء من أجل إصلاحها وتفاديها، ويظهر الصواب والحقيقة من أجل اتباعها، والتاريخ يشهد على ذلك "فما من أمة حطت عنها أعباء الكسل، ورمت بإهمالها إلى أقصى مكان، إلا كان الانتقاد هو الداعي الأكبر، والسبب الأقوى في تقدمها. ولذلك نرى أن مقدار ارتقائها إلى أوج السعادة في المعرفة والمدنية، بكثرة عدد المنتقدين فيها، واقتدارهم على معرفة مواضع النقد ليظهروها، وحذقهم بمجال العلة فيخرجوها"(٢). ولا يجوز أن يقوم بهذه المهمة الجميع بل من تيسرت لهم أسبابه، فالمنتقد يجب أن تتوافر فيه صفات، منها أن يكون ذكيًا عالمًا بعلل الأشياء ومسبباتها، حكيمًا يعرف الأخطاء وكيفية علاجها، يخاطب كل إنسان بقدر عقله وعلمه واستعداده لتقبل النقد والإصلاح، فلا يكون جاهلاً، أو متعصبًا لرأيه، أو متسرعًا لا يتبين حقائق الأمور، مدركًا لمقامات من يخاطبهم فلا يخاطب الجهلاء أو السفهاء، ذو أخلاق عالية لا ينقد الآخرين قبل أن ينتقد نفسه ويصلح حاله "ولولا الانتقاد لما بعث الله الأنبياء، وعلم العلماء، وأمر الناس باتباعهم، والاستماع لنصائحهم، إذ الغاية من إرسال الرسل انتقاد العادات والأخلاق، ليرجع الناس عما ألفوه من الباطل، واتبعوه من العقائد الفاسدة، والأخلاق الكاسدة، وبذلك تصلح حالهم، وتستقيم سبيلهم، فيكونون سعداء الدارين"(٣). فالمولى سبحانه وتعالى لا يرسل الأنبياء لقوم صالحين متقدمين، بل أرسل الرسل لمن لديهم أخطاء وعادات وأخلاق فاسدة لإصلاحها، وأرسل النبي الكريم محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم هاديًا ورحمةً للعالمين، يهديهم لما فيه الخير، ويوضح لهم الأخطاء لعلهم يكونوا من المتقين. ولهذا يبين لنا الغلاييني أنواع المنتقدين، وشروط النقد وآدابه، والفئات التي يقع عليها العبء الأكبر فى الإصلاح:

---

(١) السابق ص ١٧٣

(٢) مصطفى الغلاييني: أريج الزهور، مرجع سابق، ص ٨٧

(٣) السابق ص ٨٨

١- أنواع المنتقدين: يذكر الغلاييني أن المنتقدين ليسوا نوعًا واحدًا بل هناك أنواع عدة منهم، يختلفون باختلاف تربيتهم وتعليمهم وخلفياتهم الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وبحسب فصاحة لسان كل منهم، وذلك على نوعين:

النوع الأول: من يستعمل الحلم والصبر والتأني، وينتظر حتى يلم بكل خلفيات الموضوع المعروض عليه، ويفكر فيه ويقارنه بكل ما تعلمه وما لديه من علم أتقنه، ثم ينقد القول أو الفعل، مستعيناً بالأدب التام والخلق الكامل الشامل، وحسن التعبير في ألفاظ راقية. غرضه إظهار الحق فقط وبيان الفاسد من الأقوال والأفعال، لا يقصد التسفيه من رأي مخالفه ولا فضحه بين الناس، ولا المجادلة التي نهى عنها النبي. فمن ابتعد عن هذا المسلك وغرق في الجدال فهو أناني متعجرف، سرعان ما تهمل آرائه ويعامل بكل احتقار وازدراء، لأنه لم يطلب الحق لذاته، ولا الصلاح لأمته، وإنما سعى لتحقيق أغراضه السافلة.

النوع الثاني: من إذا رأى هفوات غيره لم يتوقف عن الحديث عنها، متسرعًا في النقد بلسان حاد لا يخلو من هجاء وبذاءة وحدة وسخرية، مما يضيع الحقيقة وينفر منه الآخرون، فلا يقر المخطئ بخطئه بل يواجه حدته بحدة تضيع الهدف من النقد. وهؤلاء ليس هدفهم النقد من أجل الإصلاح ولا مصلحة الأمة. فمن كان نقده على هذه الصورة لم يكن هدفه إظهار الحق، بل الحط من شأن الآخرين والسخرية منهم، لغرور في نفوسهم وضعف في خلقهم، فإن رأى أحدهم لدى غيره رأيًا سليمًا وفكرًا قويمًا، سفه رأيه، وأنكر عقله، ووصفه بالجهل والرزيلة، بل ربما كفره وأخرجه من الملة إن كان الجدال في أمر ديني. وقد يكون بعضهم حادًا لغيرته على العلم والدين، ولزيادة الفساد والجهل وانحطاط المجادلين، غير أنه حتى هؤلاء عليهم التأني، وحفظ اللسان والقلم عن التجاوز والزلل، لأن ذلك يضيع الفائدة من عملهم(١).

٢- شروط وآداب الانتقاد والمناظرة: يضع الغلاييني شروط وآداب للانتقاد على المُنتقِد الالتزام بها، وعلى المُنتقَد أن يجعلها نصب عينيه وهي:

أولاً: تكون المناظرة بين نظراء لا يجوز لأي منهم الاستعلاء على الآخر أو التكبر عليه مهما كان رأيه خاطئًا، فالواجب عندئذ تنبيهه وتوجيهه وتبيان ما وقع فيه من أخطاء، وليس الحط من شأنه والاستهزاء به والسخرية منه مما يدفعه لعدم الاعتراف بخطئه، بل يحاوره حتى يقوى دليل وبرهان صاحب الحق ويظهر فساد وخطأ رأي مناظره. فالهدف من المناظرة ليس انتقاد شخص المنَاظَر بل انتقاد خطأ فكره وما ذهب إليه، وإظهار الحق والصواب، وإرشاد من ابتعد عن سواء السبيل.

(١) السابق ص ٩٠، ٩١

ثانيًا: أن يجعل كل أفكاره وآرائه مدعومة بأدلة تؤيدها وتساندها وتدعمها، فكل رأي بدون دليل عليه لا قيمة له ولا قبول.

ثالثًا: أن يكون لينا رقيقًا في لفظه ونقده ورأيه دون استخدام الحدة ولو كانت في بلاغة حتى لا يضيع المقصود من المناظرة.

رابعًا: إذا كانت آراء المناظر من عنده فعليه أن يقدم أدلته على صحتها، وإن كانت آراؤه مستمدة من غيره فعليه تقديم الدليل على صحة ما نقله وإثبات صحة نسبته لمن ينسبه إليه.[١] وقد سبق طاشكبري زادة ت ٩٦٨ الغلاييني في بيان آداب المناظرة فذكر منها أنه يجب على المناظر الابتعاد عن الاختصار والإطناب، واستعمال الألفاظ الغريبة غير المتداولة، وعن التعرض لما لا يخص موضوع المناظرة، وعن الضحك ورفع الصوت لأن ذلك دلالة على عدم احترام المناظَر، وعن احتقار الخصم[٢]

ويعرض لنا الغلاييني آراء الباحثين في النوع الإنساني حيث يرى أنهم انقسموا إلى ثلاثة آراء:

الأول يرى أن الإنسان شرير بطبعه، لا يوجد لديه ميل إلى الخير لا يوجد لديه بالفطرة ولا يكتسبه بالتعلم، ولا يمكن أن يعتاد عليه إلا بعد وقت طويل يعاني فيه هو ومن يعودونه عليه من اجل تخليصه من عاداته الشريرة ونواياه الخبيثة وتعويده إتباع الخير وسلوك طريق الفضيلة واجتناب الرذيلة. وهو تصور أقرب لحالة الطبيعة عند توماس هوبز.[٣]

الثاني يرى أن البشر قد خلقوا مفطورين على الخير والفضيلة واجتناب الرذيلة، ومن يتجه للرذيلة فإنما يكون ذلك لأن هناك من شغله عن الخير أو ما دفعه إلى الشر. وهو الرأي الذي يؤيده الغلاييني لأن النفس البشرية من الروح الإلهي، تخلق لا سوء فيها وتتطبع بطبع البيئة التي تنمو فيها خيرًا كانت أو شريرة.

الثالث يرى أن الإنسان قد خلق لا يوجد لديه فطرة للخير أو الشر، غير ميال لأي منهما، بل هو مستعد لكليهما، وهنا يأتي دور البيئة والتربية والتعليم في توجيهه إلى أي منهما، فإن وجد ما يدعوه للفضيلة ويبعد به عن الرذيلة كان كذلك، وإن لم يجد اتجه إلى الرذيلة[٤].

(١) السابق ص ٩٢: ٩٤

(٢) طاشكبري زادة: رسالة الآداب في علم آداب البحث والمناظرة، تحقيق حايف النبهان، دار الظاهرية للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ٢٠١٢، ص ٢٧

(٣) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة، ترجمة د محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧، ص ٩٤

(٤) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٥٩، ٦٠

ورغم الاختلافات الواضحة بين الآراء السابقة إلا أن أصحابها يجمعون على أن الإنسان تؤثر فيه التربية، فإن لم ينل حظه منها غلبت عليه الرذيلة، وإن تم تربيته تربية صحيحة على الأخلاق القويمة على يد الواعظين المصلحين سلك طريق الفضيلة. وبقدر عدد المصلحين في الأمة يكون الأمل في تقدمها وازدهارها.

٣- الفئات التي يقع عليها العبء الأكبر فى الإصلاح: يرى الغلاييني أن عبء الإصلاح يقع على المجتمع كله لكنه يقع بشكل أكبر على بعض الفئات التي إذا ما فسدت فسد المجتمع، وإذا ما صلحت كان في وجودها تقدمه والحفاظ عليه، هذه الفئات أهمها:

أولاً: الأغنياء رجال المال والأعمال: وهؤلاء لو خدموا الأمة بدلاً من اكتناز الأموال والاتجار بالبلاد والعباد لكان في ذلك صالحهم وصالح الأمة، لكنهم عادة ما توجههم منفعتهم الذاتية فقط، فيتحولون من ملاك للمال إلى عبيد له، منغمسين في اللذات والشهوات مبتعدين عن فعل الخيرات. وأغفلوا دورهم الحقيقي في إقامة اقتصاد قوي بإنشاء المدارس والمعامل والمصانع، وإقامة صناعات وطنية قوية، ولو فعلوا ذلك لحدث الاكتفاء الذاتي من كل الاحتياجات، وامتنع الاستيراد من كل الدول والحضارات، وبقيت أموال الدولة بها فقوي اقتصادها، واستغنينا عن الاجانب الذين يمتصون دماء الأمة وليس فقط أموالها.

ثانيًا: العلماء ورجال الدين: العلم هو أساس النهضة، والعلماء هم ورثة الأنبياء، لكن إذا قالوا ما لا يفعلون، وانشغلوا بأهوائهم وشهواتهم ورغباتهم سواء للمال أو السلطة أو التقرب من أصحابهما، عن تعليم الأمة وتهذيبها، فإننا نتساءل هل لا يوجد لدينا علماء، أم انهم علماء لكنهم اشتروا الدنيا بالدين، والحياة الآخرة بالحياة الدنيا، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

أما رجال الدين فقد أصبح الكثيرون منهم يتخذونه وسيلة لاصطياد عقول العامة والتربح منه وهم في جهل مطلق بالدين، أصحاب أخلاق وضيعة ونفوس مريضة، عبدة أوهام وحفاظ كتب لا يفقهون منها شيئًا، فجعلوا الدين شبحًا لا روح له، وشككوا الناس فيما هو معلوم من الدين بالضرورة، وجعلوهم يعتقدون فيما ليس فيه، وكفروا كل من اختلف عنهم أو سعى لإعمال العقول. وجزء آخر ظن دين الله في ترك الدنيا والإعراض عنها لأنه لم ينل من ملذاتها التي لو عرضت عليه لاستجاب لها. وعلى رجال الدين الحقيقيين القيام بواجباتهم نحو الأمة بالوعظ والنصح والإرشاد وبيان طريق الحق والحث على الصلاح والبعد عن الضلال، وبيان واجبات الشعب نحو الخالق والمخلوق والدولة، وبيان العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وتعليمه الدين كما نزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بعيدًا عن البدع والضلالات والخرافات، فإن فعلوا ذلك كانت لهم السيادة على قلوب الشعب وكان لهم دور في صلاح الأمة. ومن هنا كانت أهمية فتح باب الاجتهاد الذي أغلقه المتأخرون دون من يريد إعمال العقل وإيجاد أحكام مما هو ثابت في الدين على ما هو مستجد ومتغير في الواقع المعيش، وذلك بحجة أن الفقهاء سبق واستخرجوا كل الأحكام وما علينا إلا البحث

فيما كتبوا وتطبيقه " ثم ادعت هذه الطائفة أنه لا يمكن أن ينبغ أحد من العلماء لدرجة أنه يمكنه الاستنباط من الكتاب والسنة، ولم يعلم هؤلاء القوم أن فضل الله يؤتيه من يشاء في كل زمان ومكان، وأن الأحكام تختلف باختلاف الأزمان وأن حكم الله يدور مع المصالح العامة، وأما حكم الفقهاء الذي استندوا فيه على القياس أو الاجتهاد البحت لا يناسب إلا الزمان الذي كانوا فيه. ونسى أولئك المانعون أن العلماء المتقدمين أوجبوا أن يوجد في كل عصر مجتهدين يشرحون للناس ما يناسبهم من أحكام الدين والدنيا، وحرموا أن يأخذ أحد بأقوالهم إن لم تكن مستندة إلى الدليل"(١). وفي هذا الصدد يتفق الغلاييني مع الأفغاني الذي حين قيل له أن باب الاجتهاد مسدود لتعذر شروطه كان رده " وبأي نص سد باب الاجتهاد؟ وأي إمام قال لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهد ليتفقه في الدين ؟ أو أن يهتدي بهدى القرآن، وصحيح الحديث، أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية، وحاجيات الزمان وأحكامه، لا ينافي جوهر النص"(٢). كما يتفق أيضًا مع النورسي الذي اشترط في رجال الدين والمعلمين المحترمين " يكونوا محققين ليتمكنوا من الإثبات والإقناع. وأن يكونوا أيضًا مدققين لئلا يفسدوا توازن الشريعة. وأن يكونوا بلغاء مقنعين كي يوافق كلامهم حاجات العصر. وعليهم أيضًا أن يزنوا الأمور بموازين الشريعة"(٣)، فباب الاجتهاد لم يغلق، وإنما سعى المقلدون ممن لا علم لهم إلى تقييده وغلق الطريق أمام كل من تتوافر فيه شروط الاجتهاد ولديه القدرة عليه من علم باللغة العربية وتفاصيلها وأحكامها، وبالقران والسنة وعلومهما، والإجماع والقياس واستنباط الأحكام.

ثالثًا: الحكام: الحكام هم المسؤولون عن الأمة والحفاظ على دينها ودنياها، غير أن كثيرين منهم ابتعدوا عن مهمتهم، وأصبح غيهم أكثر من رشدهم، وذلك ليس بسبب جهلهم بالقوانين أو عدم كفاءتهم، بل لضعف الضمير والأخلاق وإحاطتهم أنفسهم بأهل التزوير والكذب والنفاق.

رابعًا: أصحاب وسائل الإعلام والعاملون بها: وهؤلاء من العناصر كبيرة التأثير في المجتمعات، ولهم دور كبير في الإصلاح أو الانفلات، ومنهم من لم يعرفوا قيمة مهنتهم ودورها ولم يتجردوا من كل غاية شريرة، فنشروا الفحشاء والرذيلة، وكانت صحفهم صحفًا صفراء، إما تنافق الحكام أو تثير غرائز الدهماء والغوغاء، وتركوا نشر المعرفة والفضيلة، وعلى هؤلاء أن يعودوا إلى جادة الصواب، فلا ينشروا إلا ما كان صادقًا يفيد الأمة، ويزيل عنها الغمة، والدفاع عنها وعن دينها وبيان أخطاء من لا يعرفه حق المعرفة، ومخاطبة الأمم الأخرى بلغتها دفاعًا عن الدين، وبيان البدع والخرافات والأكاذيب التي يلصقها به من لا يعرفونه حق المعرفة ، يبعث في المواطنين روح الجد

---

(١) مصطفى الغلاييني: الإسلام روح المدنية، مرجع سابق، ص ٤٤

(٢) عبد الرحمن الرافعي: جمال الدين الأفغاني باعث نهضة الشرق، مرجع سابق، ص ١٥٩

(٣) بديع الزمان سعيد النورسي: المحكمة العسكرية العرفية، مرجع سابق، ص ٤٧٣

والاجتهاد، بالجرائد الحرة الصادقة والكتب النافعة، فرجال الأقلام هم قادة الشعب، إن أحسنوا القيادة وصلوا بالأمة إلى الرخاء والتقدم، وإن فسدوا كان فسادهم وبال عليها. ولعل الغلاييني كان متأثرًا في ذلك بأكاذيب اللورد كرومر عن الإسلام ودفاع السيد رشيد رضا عن الدين وإنشائه مجلة المنار لهذا الغرض القويم. ولم يكن الغلاييني في نقده العنيف للصحف منفردًا بل نجد النورسي يذهب لنفس الأمر حيث يرى أن الصحف قد اعتادت " على زعزعة الأخلاق الإسلامية بقياسين فاسدين وبما يوهن العزة والإقدام، حتى أهلكوا الأفكار العامة السائدة"(١).

خامسًا: رجال الحكومة: من العاملين في دواوين وأجهزة الدولة المختلفة، القائمين على الإدارة والتنفيذ، وهؤلاء متى فسدوا فسدت الأمة، ومن واجباتهم حفظ الأمن وتحقيق الأمان، ورقابة الفاسدين المفسدين المتاجرين بالشعوب الضالين المضلين، ومعاقبتهم دفاعًا عن الدنيا والدين، ورفع راية الحق والعدل وإبطال الظلم، وعقاب الظالم ومنح المظلوم حقه منهم، وغيرها من الصفات والواجبات التي ما تقدمت أمة إلا وكانت أساس تقدمها، غير أنها تضاءلت واختفت، فخلت البلاد من الرجال العظام، واندثرت الزراعة والصناعات، وانتشر الظلم والفساد والرشوة. فإن لم يصلحوا أنفسهم فإن هذا التيار لابد أن ينتهي ومقاومته والبطش بأهله وبيان فسادهم ومفاسدهم فإما الاعتدال أو الاعتزال وفي كل الأحوال وجب عقابهم، أما الصمت عليهم فيزيدهم في غيهم وظلمهم وفسادهم. ومساعدة ومساندة القلة الصادقة في خدمة الوطن، ممن يشهد لهم تاريخهم بأنهم من المصلحين.

خامسًا: رجال دار الندوة أو مجلس النواب: تحكم الأمة نفسها بنفسها، عن طريق اختيار مندوبين عنها يعبرون عن أحلامها، ويتكلمون بلسانها، ويسعون لتحقيق احتياجاتها، وما يقرره مجلس الأمة هو ما يكون. وهؤلاء المنتخبون من الأمة ليرفعوا شأنها ويخططوا لأمرها، ويقيموا الإصلاحات لتقدمها والارتقاء بها، عليهم سن القوانين بما يفيد العباد والبلاد، بدلًا مما نراه في معظمهم من ضياع ثقة الأمة بهم، والعمل بخلاف مقاصدها وما تريده منهم، فإما هم سكوت كسكوت الأصنام لا ينطقون، وإما هم كثيرو الكلام لا يفقهون، وعلى هؤلاء أن يعودوا بالأمة إلى طورها الأول حيث العدالة وحكم الشورى الذي ما تقدمت الأمة إلا به(٢).

---

(١) السابق ص ٤٤٤

(٢) مصطفى الغلاييني: أريج الزهر، مرجع سابق، ص ٢٨، ٢٩، ٦٢: ٦٧، ١٤٦، ٢٠٩، عظة الناشئين ص ٧٤، ٧٥

خاتمة

تلك كانت قراءة لآراء واحد من كبار المجددين المصلحين، وقد جاءت عملية إلى حدٍ كبير، اتخذت من الواقع ومشكلاته سبيلاً للتفلسف، كما أن حلوله لما تأت نظرية أو ميتافيزيقية غيبية، بل جاءت واقعية تحمل بين طياتها العلاج الجذري ألا وهو التربية والأخلاق. وانطلاقًا من هذه القاعدة عالج الآفات التي أصابت الأسرة باعتبارها اللبنة الأولى من لبنات المجتمع، فناقش الأخطاء التي يقع فيها الوالدان تلك التي تؤثر بالسلب على النشء، ثم تطرق إلى التربية القويمة التي ينبغي على المدرسة ثم المجتمع أن يراعيها في السلوك العام حتى لا يشعر النشء بفصام بين ما يتلقاه في المنزل والمدرسة وما يلاقيه في واقع المجتمع. وقد قدم الغلاييني نسقًا متماسكًا في حديثه عن أخلاقيات المهنة، وذلك عندما قدم لنا الخصال التي يجب توافرها في المعلم والمتعلم لكي تبنى طبقة القادة أعني أهل الرأي الذين يخططوا الأمة، ويعملون بجد واجتهاد على تطبيق النافع مما يقتبسون من ثقافات الأغيار. وتطرق كذلك لأخلاقيات السياسة فوقف على الأخلاق التي يجب أن يتزين بها الحاكم والرعية، والواجبات التي يقوم بها المصلحون، وأخيرًا تعرض بشيء من التفصيل إلى آداب النقد والتساجل والتناظر وكل ذلك نفتقده في حياتنا المعاصرة.

ولا يعيب الغلاييني تأثره بمن سبق عليه من الفلاسفة والمصلحين، فقد دأب هذا الجيل من المجددين على إعادة صياغة الأنساق الفلسفية على نحو يتوافق مع وجهتهم الإصلاحية، ومن هذا الباب نجد الغلاييني قد تأثر بأرسطو في إعلائه من شأن وسطية الفضائل، ونجده متأثرًا تأثرًا شديدً بفلاسفة الإسلام الفارابي ومسكويه والغزالى وفلاسفة السياسة وعلى رأسهم ابن حزم والماوردي. ذلك فضلاً عن مدرسة الإمام محمد عبده التي يعد الغلاييني من روادها الإصلاحيين في بلاد الشام.

ولا أشك في أن القارئ سوف يشعر أن كلمات الغلاييني قد كتبت من أجل إصلاح ما نحن فيه، وهذا الأمر هو الذي دفعني لدراسته، والكشف عن آرائه التي نفتقر إلى مثلها على الصعيدين، الصعيد الفلسفي في الفكر العربي الحديث، والصعيد التربوي والأخلاقي في تاريخ فلسفتنا الحديثة والمعاصرة، وأعني الفلسفة التطبيقية التي أضحت لا غنى عنها في حياتنا، فلسنا الآن نحتاج لمنابر واعظة أو أخبار مرشدة، أو أقوال تراثية نحفظها، بل نحتاج إلى علاج يصلح ما نحن فيه، وهذا لا يتأتى إلا بالأخلاق التطبيقية اللازمة في صورتها (الأخلاقيات المهنية وآدابها) تلك التي لا تكتفي بالعقاب الأخروي بل هي تلزم صاحبها بالفضائل التي تمكنه من أداء عمله على أكمل وجه.

المصادر والمراجع

١- أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار الشعب، دون تاريخ، ج١

٢- أبو حامد الغزالي: ميزان العمل، مكتبة وطبعة محمد على صبيح، القاهرة، ١٩٦٣

٣- أبو الحسن علي القابسي: الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، تحقيق أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، ط١، ١٩٨٦

٤- أبي بكر محمد بن الحسين الآجري: أخلاق العلماء، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، ١٩٧٨

٥- أحمد أمين، زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٥

٦- أحمد حسين حسنين: لغة التعليم وتأثيرها في الهوية العربية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط١، ٢٠١٣

٧- أحمد الشرباصي: شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سلسلة أعلام العرب، العدد ٢١، ١٩٦٣

٨- د أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام أو التعليم في رأي القابسي، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥

٩- د أحمد محمد سالم: المرأة في الفكر العربي الحديث، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢

١٠-أدهم آل جندي: أعلام الأدب والفن: ج٢، مطبعة الاتحاد، سوريا، ١٩٥٨

١١- باسم الدهامشة: مصطفي الغلاييني حياته وفكره، رسالة ماجستير، جامعة الأردن، كلية الدراسات العليا، ٢٠٠٥

١٢- بديع الزمان سعيد النورسي: المحكمة العسكرية العرفية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ١٩٠٨، منشور ضمن كليات رسائل النور، ج ٨ صيقل الإسلام أو اثار سعيد القديم، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٢

١٣- برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة، ترجمة د محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧،

١٤- د أميرة حلمي مطر: الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨

١٥- د حسين فوزي النجار: على مبارك أبو التعليم، سلسلة أعلام العرب، العدد ٧١، وزارة الثقافة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧

١٦- الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق د محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ج١، ١٩٨٣

١٧- د رجاء محمد على: مؤتمر الأمام محمد عبده مفكرًا ورائداً للاستنارة، يوليو ١٩٩٧، ضمن كتاب د عبد الرحمن محمد بدوي: الامام محمد عبده والقضايا الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥

١٨- د رشدي احمد طعيمة: الجودة الشاملة في التعليم،الأردن، دار المسيرة، ط١، ٢٠٠٦

١٩- زكي مبارك: الأخلاق عند الغزالي، دار الشعب، القاهرة، د.ت،

٢٠- الفارابي: رسالة التنبيه على سبيل السعادة، دراسة وتحقيق سحبان خليفات، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٧

٢١- الفارابي: تحصيل السعادة، تقديم د علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩٥

٢٢- سعاد بسناسي: ملامح الطريقة التعليمية السمعية البصرية في كتاب الرسم في تعليم الخط للشيخ أطفيش، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد ١١٢، ٢٠١١

٢٣- د سعيد إسماعيل على: التربية في الحضارة المصرية القديمة، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٩٦

٢٤- سهيلة الريماوي، باسم الدهامشة: الشيخ مصطفى الغلاييني حياته وفكره، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الأردن، مج ٢٦، ١٩٩٩

٢٥- السيد عبد الله بن حسين الشافعي: منهاج السعادة وصايا ونصائح إسلامية، شرح الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية الأسبق، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٩

٢٦- شكيب أرسلان: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط٢ ، ١٩٣٠

٢٧- طاشكبري زادة: رسالة الآداب في علم آداب البحث والمناظرة، تحقيق حايف النبهان، دار الظاهرية للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ٢٠١٢

٢٨-عبد الرحمن بدوي: شوبنهور دار القلم، بيروت، د.ت

٢٩- عبد الرحمن الرافعي: جمال الدين الأفغاني باعث نهضة الشرق، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١

٣٠- عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تحقيق وتقديم د محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٩

٣١- عيسي مهنى: محمد عبده ومواقفه من قضايا عصره، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ٢٠١٤

٣٢- غاستون مير: أفلاطون، تعريب د بشارة صارجي، سلسلة اعلام الفكر العالمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٠

٣٣- د محمد عبد الرحمن برج: ساطع الحصري، دار الكاتب العربي، القاهرة، سلسلة أعلام العرب، سبتمبر ١٩٦٩

٣٤- د محمد عبد الرحمن مرحبا: المرجع في تاريخ الأخلاق، جروس برس، لبنان، ج١، ط١، ١٩٨٨
٣٥- د محمد مهران رشوان: تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، طار قباء، القاهرة، ١٩٩٨
٣٦-مسكويه: تهذيب الأخلاق في التربية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٥
٣٧- مصطفى الغلاييني: الإسلام روح المدنية أو الدين الإسلامي واللورد كرومر، بيروت، حقوق الطبع للمؤلف، ١٩٠٨
٣٨- مصطفى الغلاييني: أريج الزهر كتاب أخلاقي اجتماعي أدبي، المكتبة الأهلية، بيروت، ١٩١١
٣٩- مصطفي الغلاييني: عظة الناشئين كتاب أخلاق وآداب واجتماع، ط ١٢، ١٩٨٢
٤٠- د مصطفى النشار: تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ج٢، ١٩٩٩
٤١- ولتر ستيس: تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٤

مستخلص

تعد مؤلفات الغلاييني بمثابة إطارًا مرجعيًا للأخلاق، ذا مضمون هادف... ينم عن ثقافة عميقة ورؤية شاملة لمجريات الحياة وحركة التاريخ والتطور المجتمعي.. والتحلي بالمنهجية العلمية والتحرر الفكري فضلا عن امتلاكه لحس لاقط لكل ما يموج به الوطن من انكسارات وانتصارات وتضحيات و آمال وآلام، واستشراف للمستقبل، ورؤية بعيدة لكل ما يزخر به مجتمعنا المعاصر من مضامين التصنيف والإقصاء والتأطير والقولبة والتمييز والطبقية البغيضة.

وقد عنيت الدراسة الحالية بإلقاء الضوء على كتاباته التي تعد نقاطًا فارقة في مباحث علم الأخلاق وتجسيدًا للظرف التاريخي والمأزق الحضاري والشروخات الفكرية والتفسخ المجتمعي وتصدع نسق القيم الناجم عن ضبابية الرؤية، مع ربطها بالسياق الثقافى لمجتمعنا المعاصر. وحيث إن المجال البحثي لا تحده حدود... والباحث الحق لا يتوخى الحذر وإنما عليه أن يتطرق لموضوعات شائكة على الرغم من وجود المتربصين والظلاميين وخاصة أن الدراسة في مجال الأخلاق لن تكون قاصرة على تناول أعمال المفكرين فقط، ولكنها تتسع لتشمل السياق الثقافي والتاريخي والسياسي والعقائدي... فالمواضيع متشابكة ومعقدة لاسيما في تناول الاتجاهات الحديثة والمعاصرة وربطها بالخلفيات الفلسفية والظروف الإجتماعية والنزعات السياسية والأطر الفكرية النظرية، كان علينا رصد الظواهر المجتمعية والمتغيرات الفكرية متخذين من "الأخلاق" إطارًا مرجعيًا .

وقد نستشعر في طرح الغلاييني وجود علاقة من التوحد بين "الأخلاق" بمعناها الشامل وبين جميع مناحي الحياة المتمدنة مكنته من الوصول لمفهومه الخاص عن المجتمع العربي المسلم، وتكوينه لآليات وإشكاليات تقدمه وتأخره. وهنا تكمن أسباب نبذه لتناول الأمور على صورتها الأولية.. وعدم الإستسلام للوضع الراهن... ومحاولة قراءة الواقع بصورة مغايرة تتسق مع القيم الإنسانية العليا، كاشفاً النقاب عن كل ما يمس عصب الحياة ويعد شوكة في قلب الممارسات المجتمعية عامة في إطار التأثيرات الأخلاقية الموازية للسياقات الفكرية.

Ethics of Civility According to Al-Ghalayini

The outstanding characteristic which distinguishes Al-Ghalayini's approach to education is, indeed, the great importance he attaches to *ethics* and the special view he holds of it. On this view, despite significant differences in points of details, he builds most of his opinions.According to him; ethics represent an infinite source for life. Al-Ghalayini is one of the most important reformers who are deeply concerned with the burning issues of social reform and the process of socialization. His opinions reflect the actual human experiences of people who are leading a real life, not with the metaphysical existence. His approach to life, in general, is a realistic one including the radical treatment of education and ethics.

Based on this rule, he dealt with the issues that tormented the family as the corner stone of the society. He discussed the mistakes that the parents make during the process of socializing their children. Then, he pointed to the proper educational system that must be adopted by the school and which must go in accordance with the norms of society, so that there will be no contradiction between what young people receive at home and school, on the one hand, and what they face in society in real life situations, on the other hand.

Al-Ghalayini also presented a coherent pattern of the ethics of the profession. He gave us the qualities that must be met by the teacher and the learner in order to build the social leader. These are the people of opinion who lead the nation, and work hard and are diligent to apply in their society the most valuable aspects of the cultures of the Gentiles. He also dealt with the ethics of politics with particular emphasis on the ethics that must be adopted by the ruler and the parish, the duties of the reformers, and finally, he presented in some detail the etiquette of criticism, and the concepts of harmony and symmetry, all of which we miss in our contemporary life.

Al-Ghalayiniwas influenced by the priorphilosophers and reformers who represent the generation of innovators who had rephrased philosophical formulations in line with their reformist approach. He was influenced by Aristotle in his elevation of virtues. He was also deeply influenced by the philosophers of Islam such as Al-Farabi and Musawi, as well as the philosophers of politics such as IbnHazm and Al-Mawardi. Moreover, he was greatly inspiredbyImam Muhammad Abdo's reformist tendency to the extent that he is regarded as the pioneer of the reformers in the Levant.

In conclusion, there is no doubt that the reader will feel that the words of Al-Ghalayini have been written in order to reform what we are in, and this is what provoked the researcher to shed the light on his views and apply them to the contemporary life in modern Arab world. We have to admit the painful truth that in our present days we suffer from the deficiency of philosophical thinking, the deteriorating educational and moral level, the lack of awareness of a sense of history of our modern philosophy.Transcending our current situation is only achievable through applying the practical ethics or professional ethics which obligate the individual, as a member of society, to conform to the virtues and code of ethics that would enable him/her to perform his/her role in a proper way in order to achieve the coherence between the individual and society.